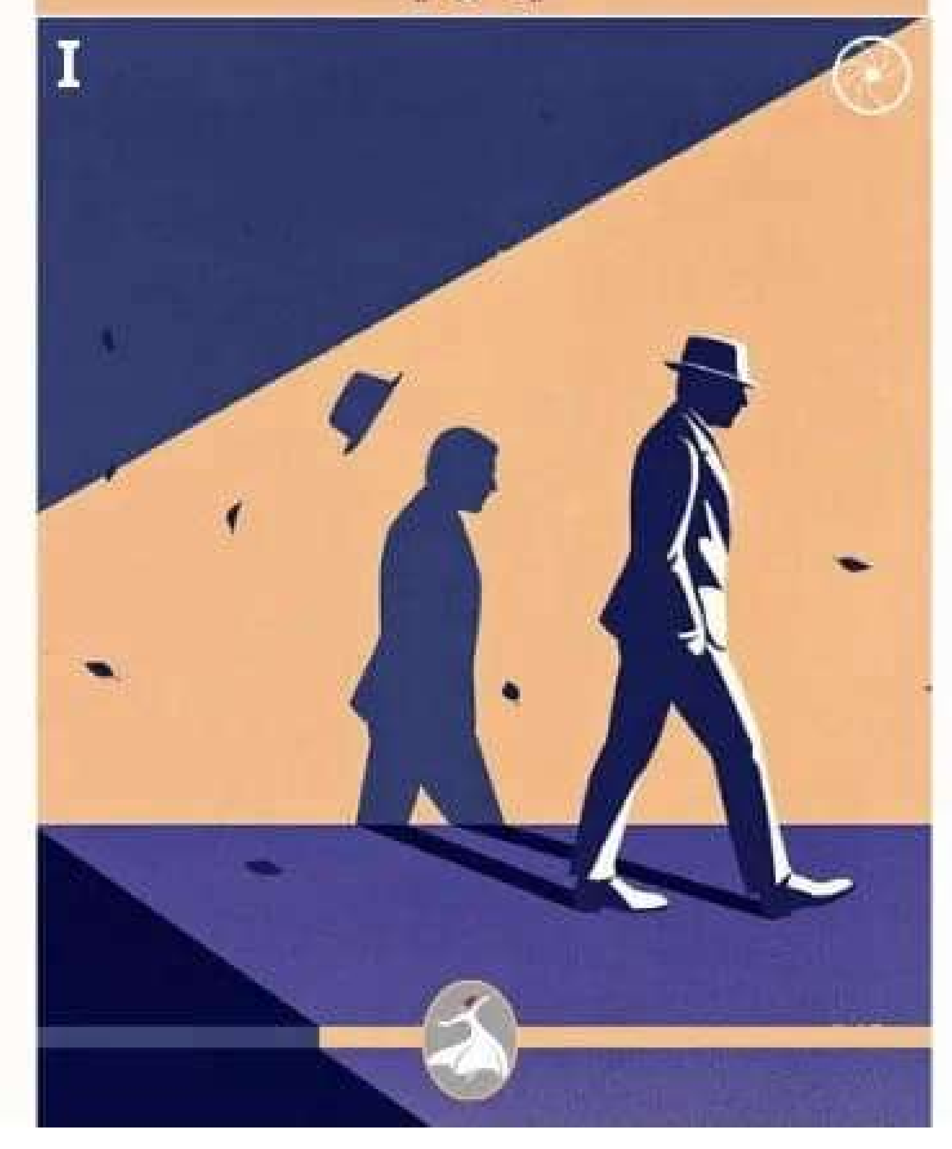




زمن التعب المزمن

سيرة روائية

I





ياسين الغماري

تاريخ الولادة
ومكانها:
22/02/1995 سوسة

متحصل على
باكالوريا علوم
تجريبية 2014
متحصل على الاجازة
الأساسية بالمالية
2019
متحصل على
الماجستير في
التحليل المالي
بالإنجليزية 2021



ياسين الغماري

زمن التعب المزمن




زمن التّعب المُزمن

الكتاب: زمن التّعب المُزمن (خسوف)
المؤلف: ياسين الغُماري
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- كاوفبويرن - جمهورية ألمانيا الاتحادية
Darawesch Verlag



العدد: ٥١٠
الطبعة الأولى: يوليو ٢٠٢٣
ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع فى المكتبة العامة في كاوفبويرن ألمانيا : ٢٠٢٣

بواسطة MVB

(ISBN) (ردمك) الورقي
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي

للتواصل:
الدّراويش للنّشر والتّرجمة
daraldarawesh@gmail.com
هاتف: 00491627040179، ص.ب: 87600
شارع لايناور هانغ رقم ٣١ - كاوفبويرن - جمهورية ألمانيا الاتحادية.

زمن التّعب المُزمن

ياسين الغُماري



©
الدّراويش للنشر والتّرجمة
AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
W W W . D A R A W E S H . C O M

جمهورية ألمانيا الإتحادية -كاوفبويرن
Kaufbeuren – Germany
2023

يا من تدخل إلى هُنا، تخلِّ عن كلّ أمل

دانتي

الجميع يُفكّر في تغيير العالم، لكن لا أحد يُفكّر في تغيير نفسه

تولستوي

إن القيمة الأولى في نجاح أي مشروع اقتصادي هي الإنسان، ليس الاقتصاد إنشاء بنك وتشييد مصنع، بل هو قبل ذلك تشييد إنسان وتعبئة الطاقات الاجتماعية في مشروع تحركه إرادة حضارية

مالك بن نبي

نحنُ نشنُّ حربًا ضدّ الطَّبيعة إذا انتصرنا فيها فقد نخسر

هوبرت ريفز

(1)

كُنتُ تحت رِئاسة المدموزيل "هالة" بقيادة المدموزيل "مرام" (مدام سابقًا) الّتي كانت تحت عِمادة المدموزيل "ميرا" بقيادة المسيو "خالد" الّذي كان تحت زَعَامَة المسيو "فاضل" بقيادة المسيو "إدريس" الّذي كان تحت مُلْك البارون "سلمان" بقيادة اللورد "نجيب"، ولائحة السلطة مدرجة لأيّام. في مُوازاة ذلك كنتُ مُتدرّبًا بحتًا. يتلقّى أوامر. ليس لي سلطة على أحد. قدّرت أن ذلك استرقاق لا يتصوّره عقل. ما أذهلني في هذا البنك هو أنّ حذائك لا بُدَّ أن يكون بارقًا مثل الماس. ولا يقلّ عن مئتي دينارًا. وإذا كان من اللون البُنّي الداكن يُفاضل أن تنتعل معه جوارب بيج أو كاكيّة. فضلًا عن تخيّر شكل ولون القمصان ورباط الرقبة بشكلٍ يومي. البنطال مُوازٍ تمامًا للكعب. البارفان من علامة تجارية راقية ورائحته تفوح من مسافة كيلومتر واحد إذا كان ذلك مُمكنًا. الذقن أملس ما في ذلك شكّ. تصفيفة الشعر نيّقة مثل نجم سينما تيّاهًا بحُسنه. وفي تمام سحره. كنت أدرّبُ نفسي على السّير في موديلات الأحذية الكلاسيكيّة

الفاخـرة الّتـي تُطلق طرقعات تُماثـل طرقعات أحذية الملـوك. نزولًا عند رغبتهم أصرف سـاعة زمنيّـة أتأنّق في الهندام وكان هاجسًـا على غاية من الصعوبة، قد أعياني.

يُقدّر البنك، بالبنك الرائد في شـمال إفريقيا. تأسّس عقبى دمج فرعي تونـس البنك للبريطـاني للشرق الأوسـط والشركة المارسـيلية للقرض. يتألّـف مقـرّ تربّصي من عـدّة طوابق. لكنّنـي هاجـع في الطابق الأرضي. اصطحبنـي الرئيـس "نجيـب" في جولـة مُوسّـعة بعـد أن رمقنـي بنظرة حلزونيّة وقحة، فيها سُـلطة ونُفوذ. كُنتُ أتحيّن الوقت الّذي يصمتُ فيه حتّـى تصاعدت الحُموضة من بطني. لكنّـه لا يصمت بأيّة حال. ولا يَنِي عـن رفـع حاجبيه. لم أكن أُرعيه السـمع قط. راح يُثرثـر بدءًا من المصرفي الّذي يُسـجّل مُعاملات عملاء البنك على أسـاس يومي. يختصّ مسؤول العُملاء من غير شـكّ بدَوَام حسـابات العمـلاء وإدارة ملفّاتهم. بالزيادة إلى إجـراء تحويرات على العُقود. أمّا مـا كان من أمر مُدير المكتب الخلفي فيكفل تسـوية العمليّات المصرفية والمحاسـبية، كما يُـزاول وظيفة المُراقبة والتنبيـه للحـوادث. ختامًـا بالسـيّد المديـر "نجيـب" الّذي يتـولّى تنمية العملاء والقيام بالعديد من المهام الّتي يمتدّ ذكرها إلى شهور. وبيد ذلك، كان لديه وافر الوقت ليُهدره بالهذر حول كل وظيفة من وظائفهم. مسح طقمـه ذي اللـون البحري. المهم أنّه لم يفقد قداسـة لمعـان حذائه الفاخر.

وفارقنـي عنـد جناح المصرفي ممّا يعني أنّني سـأقضي اليـوم في ذمّة "هالة" و"مـرام". كان كلّ شـيئ عليه مسـحة مـن الهدوء الحزين. عـلى نحوٍ ما، أصبحـتُ أعرف أعراف كلّ واحد منهم، يأبى السـيّد "نجيب" التَجْوِيز لأي مُوظّـف بالدنو من مكتبه ولاسـيّما العُـمّال المُتعاقدين. لا أحد في هذا البنـك في مُواصفاتي باسـتثناء "هالة" الّتي كانـت للوهلة الأولى على قدرٍ من الإنسـانيّة. كانت طيّبة على الأقلّ. لكنّهـا كانت أميل إلى النميمة. أمّا ما كان من أمر "مرام" فتتلامح مُزيّفة. أفعى بلا سـمّ. تُحاول سُدًى تأكيد سُـلطتها. كانت أبـدًا واجمة، لكنّ تـردّد مُثولها في المحاكـم لنيلها الطلاق جعلهـا تنفجر مثل الكراهيّـة. تزوّجت عن قصّة حُـبّ عنيفة فحصل لها تكشّـف أنّ زوجها مُجـرّد ديّوث يُثير الرثاء. جلب لهـا صديقه ورجا منها علاقـة ثُلاثيّة تعصـف كالريـح. ردّت بـ"عزاك وخـلاك" وطوّحت بهما خارج البيت.

شملني شعوري بأنّي أفقد طاقتي دون أي مدلول. لم أكن أعرف موقعي في هـذا البنك. لا شيء أفعله، وهذا كُلّ مـا عُهِدَ به إليّ. بلغت أخيرًا أحد أحلامي وما كنتُ أدري أنّ واقعه سـخيف. صادفتُ ضالّتي في الصمت والجلوس مُستسـلمًا. وهـزّ رأسي بالإيجاب. اكتشـفتُ أنّ صوتي اختفى. كُنتُ مثل البورتريه الّذي يُزيّنون به البنك. يأتي العُملاء ويطرحون أسئلة عنّي تنتهي بـ"مُوظّف لقطة، من أين أتيتم به؟ ما أوسـمه" أ سـألبث كما

أنـا طويلًا؟ حاولت أن أحشُرَ نفسي بـين المُوظّفين، لكن دون جدوى. ما غـرض قُعـودي هذا كلّه؟ موقعـي الحقيقي لا بُدّ أن يكـون في بنك آخر. لم يكـن مطمحـي أن أدخل هذا البنـك، جُبت الكثير مـن البُنوك، قبل أن أُبـاشر تَدريبي. وكلّها إِعْتَرَضَت على قُبولي ذلك أنّي لا أملك وسـيط ولا أحد يدسّ إكراميّة نيابة عنّي.

لإِنْبَـار الولاء في الصّناعة المصرفيّة، تحتاج إلى تحليل مُتطلّبات العُملاء وتَقديراتهـم. لا يُتيـح لكَ هذا العمل اسـتهداف كل صنـف من العملاء بإِجَادَة أكبر فحسـب، بل يُجيزُ لكَ كذلك تقديم المنتج والسيرفس الأكثر مُطَاوَعَـة لـكل منهـم. كان هذا جسـرًا لفضـح أسرار العمـلاء وجعلها موضعًـا للتنادر. يُمكنك سـماع قصص مُختلفة عن أعـراض النّاس وكان ذلك شـيئًا يُؤلمني. طفقت "هالة" تحكي لي عن العميلة الثريّة الّتي تُشرك عشـيقها في حِسـابها البنكي، ممّا يعني أنّها تنثر عليه الأمـوال مكان أنْ هو يُغدق عليها. إنّه يبيع نفسه. هل رأيتَ رجلًا يبيع نفسه نظير المال ؟ رجل مومـس؟ إنّـه أمـرٌ غريب ومُثـير للحِداد. وشـعلة انتقلـت للحديث عن القاضي الّذي جاء لسـحب خمسة آلاف دينار من فوره. إنّه يُحبّ الصّبيان ويشـتريهم لقاء تسليم أنفسـهم له. وتحوّلت لسرد قصّة تلك العميلة الّتي أنذرت حياتها كلّها لبناء فيلّا من خمسـة طوابـق، ومتى اكتمل بناء فيلّتها طلّقها زوجها وجلب عشيقته لتُطلق مؤخّرتها فيه. لقد أُعفى من هاجس

اللوكال واكتراء الشقق بالساعات.

كفتاة ستريبتيز مُحترفة تمضي "مرام" إلى دورة المياه مُلطّخة بالظلمة لُتسوّي الكُحل وتكبس السوتيان الّذي تهدّل بعد أن افتعلت مُناوشة مع أحد العُملاء واسترعت الأنظار نحوي دون أن يكون لي يد في الموضوع. فارقت غريمها السّمج يهذي مُمزّقًا ويقفز بحوافر الحصان. فُخّار يكسّر بعضو. تعاطيها السيئ جعل العملاء يبغضونها. أخذه البارون "سلمان" إلى مكتبه لتهدئته، وقد كان أكثر تجاوبًا للإبقاء على صورته بين أهل المدينة.

تتأفّف "هالة" خائبة ومُختلطة بالضجر والاستياء

"لماذا لا تستقيل من هذا البنك السفسوف؟"

"لا أستطيع"

"حاول أن تفرض نفسك"

"بذلت كل ما بوسعي"

"اسعى أكثر"

"أما قُلت لكِ أنّ وُجودي غير مُرحّب به"

"لا عليك"

"لابُدّ لي أن أتلهّى بشيء ما. بأي شيء"

"كُن وقحًا"

"ليس من شيْمي"

"إنّ المبادئ تغيّرت، وما فتئت تنتسب إلى المدينة الفاضلة"

كنغمة ساكسفون ذاوية أحسّ بأقدامي تنزل بين الأوحال والإنسحاق. ليتني أهرب. تصدح معزوفة الفرار في رأسي. الهرب ليس من طبعي. أطفو في البله والعرق والعتمة. أُفرّج نفسي بحثًا عن نصرًا من هزيمتي. أجدني في مكتب "ميرا". تسحبني بنظراتها. تحدسُ أنّني صرخات كثيرة لم أُطلقها. الوجه الشاحب يشعّ نصفه من تسلّل خيوط الشمس كعناق الفسفور بالظلام. شيء خبيث ينفجر من عينيها. شيء مُخيف يمتدّ من سواد القلب. شيء مُقزّز يمتلئ نقمة من دواخل لا يُمكن فهمها.

"ما الأمر؟"

"لا شيء أفعله"

"كلّنا في ضغط"

وتصمت.

عاهدت الرئيس "نجيب" بالاعتناء بي أثناء فترة تدريبي ونكثت بوعدها. شهرت مشرطًا على تحرّكاتي، وكلّما تحرّكت قصّت بواعثي، حتّى صارت مُفكّكة. كُنتُ أصيح غُبنًا من أجل الحُريّة. الواقع أنّني علمتُ من "هالة" أنّ لـ"مرام" المُتعجرفة ذراع في عطبي. أحاطتني بمعرفة ملتبسة قاحلة دون مُكاشفات تتبعها. وما عاد يهمّني حقًّا أن أتعمّق. كلّما دنوتُ من المعرفة لاقيتُ الهلاك يبتلعني. أضحت الدراية أعتى من أي حقيقة.

إنّني أختصّ عنهم بقدر من اللامُبالاة، وهمّ يتكفّلون بقتل القسط الآخر. ولعّني بعد قتلهم لن أُكلّف نفسي عناء الاعتناء بهندامي، ولا التقصّي عن أوهى معلومة تُساعدني في المضي قدمًا ببحثي، أو حتّى لحثّي إيلامًا على المجيء إلى البنك. وفيما كنتُ أهذي كانت نظرات "ميرا" الهائمة تطفو على حدّتها. ترامقنا في كآبة شاحبة. تسلّل "إدريس" وأمدّني لاهبًا بورقة ذات حجم إ4. لم يروقه نسخي ورآه مُعوجًّا. يده تسترخي على نصف رأسه الصّلعاء والمُحنّطة.

يلتصق بمُكر واحتقار ويقول هازئًا

يشدّني بنظرات الحقد ويضحك أهوجًا كالحرذون أنّني لا أستطيع فعل شيء." يا للعار، ليس مُستقيما"

وكانت يا للعار تعبث بكرامتي وبمثابة أسفلي.

هذا اللاشيء قد أُنيط بعهدتي، ومن ثمّ يسخر من جهلي. بضجري وغُبني أُعيد ملجومًا نسخها. وأدفن نفسي في مصبّ الأوحال الكُبرى. خيوط من الدخّان القَلِق تغمرني. تعلو كآبتي مُدمدمة كالأتراح الشريرة. أغرق في ضبابة شعواء. نظرة مُنكسرة ومدقوقة تندّ منّي. نشّفتُ عرقًا مُلتهبًا كالبركان عن وجهي. يا لها من مهمّة شاقّة ألّا تعرف كيف تُرجع الإساءة بالإساءة في حينها. لا يكفي أن تكون مُتعلمًا ومُثقّفًا، بل أن تكون موظّفًا من صُراخ وصواعق. ليس لي من أحد ما يردّ الضربات عنّي.

عشيّة ذلك اليوم، جمّعت قدرًا ضئيلًا من المعلومات من خلال المقالات المُكوّنة من نصف صفحة والمنشورة على الموقع فيما يتعلّق بالمسؤوليّة الاجتماعيّة للبنك. أثناء فترة تدريبي، لم يُسدي لي المُوظّفون أيًا منها. بمِيزَته بنكًا مرجعيًا في الشرق الأوسط، لم أجده يلعب دوره في التنمية المستدامة ولا حتّى مُتعهّدًا بتبنّي سلوك مسؤول اجتماعيًا. لا وجود لتقارير عامّة منشورة. البنك يزعم أنّه يُراعي البيئة ويحرسها دون الإفادة بتصريحات حول مُمارساته في هذا الصدد. هذه رُسومات خادعة تُطابق الغسيل الأخضر أو فنّ تخضير صورته، كما الغسيل الاجتماعي لتَمْوِيه مَسَاءَة دعاواها الإداريّة الداخليّة إِزَاء موظّفيها دون اتباع نهج وقائي و شَدِّ العملاء إليها. يؤدّي الغسيل الأخضر إلى نشوء التباسات، وكما يمدُّ صورة معيبة يسوء بها إلى البنوك المُشاركة في مُبادرات أصليّة للتنمية المستدامة. تُصوّغ برامج العمل الخيري بشكلٍ استراتيجي لتضليل المستثمرين الخارجين بشأن قيمة الشركة وتحقيق أهداف الربح.

حماية البيئة قضية كُبرى. أمّا الحفاظ على الموارد الطبيعية ففضيلة عُظمى. من ناحية أخرى، يحسّ النّاس بالوَاجِب تُجاه البيئة وهذا يرجع في المقام الأوّل إلى وَاقِع أنّ تَلَوَن المناخ يُقيمهم في بؤرة المُبَالاة. تبدّل المناخ يَنال من حياتهم اليوميّة. إذ أنّ هُنالك من يتحسّس من الرطوبة وهذا يترك نتوءات ومقرفة عليهم اليوم بامتداده.

قالت "ميرا" ذابلة ومنثورة على كومة الأوراق

"كم ستبقى بيننا؟"

"ثلاثة أشهر"

تفحّ كأفعى وقسمات وجهها كومة من الاضطهادات البغيضة

"ولا كلمة أمام الرئيس "نجيب" عمّا تفعله"

"لأي شيء؟"

"سيغضب منكَ وربّما يرفدك"

"ولكنّني لا أقوم بفعل غير قانوني"

"قول الحقيقة غير قانوني"

"وبحثي؟"

كان التعب يمتدّ إليها من باكرة ساعات النّهار." اعمل في صمت"

اعتقدتُ أنّها كانت ستُخبرني رجراجة بكل شيء، لكنّها كانت مستاءة مـن كلّ شيء. ألحظ فيها إزديـاد قطرات العرق. وبُغيـة عميقة للصُراخ. يسـودني شـعور بأنّها روبوت ليس من حقّها القول إنّني مُتعبة. كان حالها مهـدودًا ومكـدودًا. تتراقص أسـلاك الصمـت. تشـدّها. وتخنقها. حالة عويصـة خسيسـة تلك الّتي فيهـا. كصفعتين مـن إذلال واجم. أصوات النّـاس المُعذّبة تنبعث منها. تركتها للسّـاعات الطويلة من العمل الشـاق والوجـه يعزف الحُـزن. تُطلق، بين آنٍ وآن، أنينًا ملآن بالكدمات الحسـيّة

والماديّة الغائرة. تسيح منها هضاب مشروخة مُدماة. بينما أَقداح الشُرب تُكرع، تُكرع..عواء، عواء مجلجل تقشعرّ له الأبدان، كنت أكابد أقصى أوجاع التفكير. أنظر إلى صناديق كرتونيّة تربض على عضادة الباب وأذرع بشريّة من الأوراق النّقديّة تمتدّ وتستميت في قبضي. وأفزُّ مُنزلقًا من مكاني مُتلمّسًا طريق الدواليب. أنكمش في العتمة. أنقرُ على عُضوي لأتبوّل للمرّة العشرين. المدفع الرشّاش يبتر تفكيري والصّمت يغتال شتاتها. وبالتّالي ضحكت عن ما جئتُ لأفكّر فيه في الدواليب ذلك أنّي أودُّ بعث مشروعًا مصرفيًّا بتلك النقود الهزيلة التّي عندي.

وفقًا للاستطلاع الّذي أجريته بعد أن جئت موظّفي البنك بأكواب الشاي، يحسبُ أربعة وثلاثون فاصلة أربعة بالمائة من المستجيبين أنّ الإيصال ليس له أي فاعِليّة على صحّة الفرد. الثابت أنّ هذا الجهل منشأه قُصور الحملات التوعويّة. زد على ذلك الخمسين بالمائة الباقون يُؤمنون حقًا بخطورة هذه القطعة الصغيرة من الورق. وخمسة عشر فاصلة ستّة بالمائة لا يهتمّون بما سيحدث لهم أو لغيرهم. بعد ثلاثة أيّام بالضبط، أجريت مُقابلات مُباشرة مع العديد من عُملاء البنك حول رُؤيتهم واستخدامهم للإيصال، ثلاثة من العملاء العشرة الّذين شملهم الاستطلاع أعلنوا الاحتفاظ بالإيصال للضمان والمُحاسبة، وخمسة أشخاص لم يحتفظوا به مُطلقًا، شخصان يُبقيانه ذلك أنّهم يُعانون من الاكتناز القهري.

الورق أوّل مادّة تستهلكها الخدمات المصرفيّة بعد أعراض النَاس. إنّه يُعدّ كَبِدًا اقتصاديًا هامًا وجانبًا بيئيًّا حسّاسًـا. التوظيف المُلائِم للطابعات ونقـل المعلومـات مـن الوسـائط الورقيّـة إلى الوسـائط الرقميّـة وتوفير الماسـحات الضوئيّـة يكفل تقليـل التأثير البيئي. وبوجـه أخصّ هذا ما لم تفهمه "هالة". كانت تُهدر كل علب الأوراق. تملّكني الحُزن ذلك أنّ كل الأوراق الّتـي دُمِّرت تعني إتلاف الأشـجار والغابات. هذا يتضارب مع بحثي في شأن الاقتصاد وصَوْن البيئة.

قُلت." هذا العمل له تبعات معيبة"

تردّ حادّة الطّباع

"فلا شيء يهمّني"

" حسبتُ أنّكِ تختلفين عنهم"

تُجيب بنزق:

"هذا ليس بيتي كي أصونه"

"لكنّه المكان الّذي تسترزقين منه"

تقول في طيش وخُطواتها سمجة:

"راتبي لا يكفيني حتّى نهاية الأسبوع الأوّل من كل شهر"

أضحك بصُورة غَامِضة. إنّ التفكير المُستمرّ لن يصل بي إلى أي مكان آخر. مـن أين تـأتي "هالة" بالمال لإكمال الأسـابيع الثلاثة القادمـة؟ وكان

رأسي يمتلـئ بتكهّنـات مُرعبة. أذكرُ أنّني أبدًا لم أسـألها كمّ تقبض. أذكر أنّني فارقتُ قسـيمة من همّتي لطرح الأسـئلة، وما تبقّى لا يكفي لأستهتر الرئيـس عـمّا ينبغـي معرفته. أذكـر أنّني وقتـذاك كنتُ شـخصًا له نصيبه مـن المشـاعر. أذكر أنّنـي تضايقت وبكيـتُ بدموع محـرورة جفّت لأنّني أصبحـتُ إنسـانًا بلا مشـاعر، عاطفتـي مُحنّطة، ثـمّ عرفـت أنّ اللامبالاة من بين المشـاعر المُقنّعة والنّاجحة. تقرّر منّا أن نتمشّـى بين شوارع المدينة الغامضة ليلًا. يدها النحيلة والشاحبة محشوّة في فُتحات معطفها. نجوب الأحيـاء المُلتويّـة والمُظلمة بكِتْمانها. أعمـدة الإنارة باهتة تُثـير مللي. يكاد الأخدود الأسـود يجترعنـا من وقت لآخر. الحـيّ، طريق مسرحي طويل من الذكريات المُشرّدة وبهلوان مُقنّع بالشجارات الشرهة للموت. أحسُّ أنّنـي أنجرف نحو بالوعـة مُخيفة قاتمة. إلى أين أنا ذاهب معها؟ لماذا قبلتُ دعوتها؟ أصطرع طيف الفُصام وأطرد هيمنته.

يخفق لسانها كجناح طائر:

"أين وصلت في بحثكَ؟"

"وصلت إلى طريق مسدود"

"ألم يُوصلك الرئيس "نجيب" بما تُريد"

"كلا"

"ماذا عن "ميرا" ؟"

"لا تعرف شيئًا كذلك"

"هذا معيب"

"أشعر بالأسى، وقتي ينفد"

"لقد أتيتَ إلى البنك الخطأ"

"أعتقدُ ذلك"

"أتمنّى أن تجد وظيفة في بنك آخر"

"لماذا يُريدني الجميع أن أغادر؟"

"إنّهم خائفون منكَ"

"وهل أبدو كشخص مُخيف؟"

"إنّه ليس كذلك"

"خبّريني أنتِ إذن؟"

"يخشون على بِقاعهم في البنك"

"هذا سُخف"

أَبَانَت لي أنّ الموظّفين الشباب ينتسبون إلى الشركة المُنتدبة وليس للبنك نفسه. كان الموظفون الشّباب في البنك مثل الأبقار، أدناهم مرتبة، يحلبهم كِبار المسؤولين بكلّ ما أمكن من انتفاع ودون أن يجنوا ما يُثمّنهم. مدعاة لضغوط وفي إِعْتِيَاصات نفسيّة. لديهم قصور في العَزْو إلى شركتهم وهم على تأهّب لمفارقة عملهم حال حِيازتهم على عرض أفضل. كل

شـيئ مظلـم، وما هو مظلم لا ينبغي كشـفه، أو حتّى بُقعـة من الضوء لا يجـب أن تسـقط عليه. مثلما هُنالـك مناطق يُحضر دخولهـا، هُنالك أسرار يُحضر بثّها. إنّ جهلك ببعض الأشياء سكينة لأعصابك. والجهل نعمة لا تعرف كرمها. إنّي أندم على معرفتي، ويا ليتني بقيتُ على جهلي، لذا ابقى جاهـلًا. لا أدري بـما أُجيبها. أصل الظلام منّي. ولفرط ما عرفتُ بشـاعة من الحياة ما عاد ثمّة شيء يخضّني ويُخضعني. تسـاوت الشرور بدرجاتها في نفسي. كل الفواجع خبرتها وما عاد شيء يرجّني.

"نحن لا شيء"

"كم راتبكِ؟"

"من المُخجل أن أُصرّح به"

"لا عيب بيننا"

"لا تُلحّ"

قدّرتُ أن راتبها لا يقلّ عن ألفيّ دينار. أ تراني مُخطئًا؟

"كيف تستكملين الشهر؟"

"تلك حِكاية أُخرى ردّت في عناد"

"خبّريني"

"عن الهُراء؟"

بشـعور يُشـبه خيبة أمـل قاتلة. ابتسـمت في جـذل وسـكتت مُثقلة.

تختلس نظرات مُحطّمة ومُتَرابِطة. راح كلّ منّا يُحدّقُ في الآخر بسُأم. أحسبُ أنّ هُنالك من يُغدق عليها الثراء، ذلك أنّها قد حدّثتني عن الحُرفاء والعُملاء الّذين يأتون إلى البنك لسحب الأموال المبعوثة من قبل أفراد غير مُرتبطة بهم. حتّى أصحاب المصلحة هُنالك من يبذر عليهم المال حلالًا زلّالًا. إنّها خزينة الدّولة. ويُعلّل هذا عُلُوّ مكانتهم في رأس مال البنك. صارت العائلة المافيوزية مُتنفّذة وأسوأ، من أي وقتٍ مضى، بعد زواج واحد منهم، بابنة الرئيس المخلوع. رُتبتهم العاشرة في قائمة الذين نهبوا أكثر من ثمانية آلاف مليار من المال العام ما بعد الثورة. تمتد القائمة إلى مائة وسبعة وعشرين عائلة مُفترسة ثريّة. إنّهم لا يعتمدون على نهب واحد، بل يعتمدون على نشل أحلام الشباب وطاقتهم وأساليب قمعيّة أُخرى. من سيُحاكمهم؟ القضاء في صفّهم. لديهم عضويّة خفيّة في البرلمان ويسنّون القوانين حسب رغباتهم. يأكلون ما يحلو لهم إلى أن غادر المستثمرون البلاد من جُنون استحواذهم. كلّ القوانين الماليّة طالها العبث. أستبقى في عفّتها بمفردها؟ من لا يُعيطك مُرادك اجتثّه منه. ما عادت العلاقات تدور حول الإنسانيّة، بل حول الأموال والمصالح. كما قال ذلك الإعلامي السّمج أنّ زوجته واحدة من أجمل شركاته وصفقاته، ذلك أنّها تدرّ عليه النقود حلالًا زلّالًا، شبّه نفسه بالنبي، واستشهد بقوله: "يا خديجة، كنتُ فقيرًا فأغناني الله بكِ"، شأنه شأن الدولة وأرباب

البنك. للجاه مفعول لذيذ كالترامادول. من يُحاسب من؟ الإعلام بنفسه مُموّل من الجلّادين القُدامى والجُدد. لمن تشتكي حبّة القمح إذ اكان القاضي دجاجة[1]. وولّت راجعة تتندّر عن بعض الحُرفاء.

"ومع ذلك يُصرّحون أنّها مُرسلة من طرف أصدقائهم"

قُلت." هذا فعل خسيس"

"كمّ أنتَ بريء"

"لستُ بريئًا ولكنّني ذو آنفة"

"الحياة تُجبر المقهورين على فعل كل الأشياء"

"القهر لن يمتدّ إلى أخذ أموال الآخرين"

"أيّام الشقى على الجبين مكتوبة[2]"

يديها ترتعدان رصاصة. وتتعرّى عن الرُعب وظُروف عائلتها الصّعبة أبدًا. أبدًا مدهوشة تُعاني. أبدًا مُلتصقة بالفقر نفسه. كأنّهم في حقل فيه ألغام وصواريخ وقنابل، تبعث على النّقص. الشريط الدامي ضَيَاعًا يشذب سماكة القوقعة في الحقيقة المدقعة. امتنع والدها عن العمل مُدّة مُعيّنة. كانت في الثانويّة متى لم يعد لديهم ما يأكلونه حتّى. اضطرّت الظروف أُختها على فراق مقاعد الدراسة حتّى تُوفّر لهم المال. عملت في متاجر شاملة، تبيع العُطور والمُرطّبات. شعور الخصاصة إلى ما بعد

(1) مثل شعبي

(2) مثل شعبي تونسي

سنوات كثيرة. هذا الشعور النّحيل بالذات جعلها تسأم وتختنق من أعماقها. يلطمُ كطبل هُنود الحُمر. تعلّمت المُكر والمُقاتلة من مُعاشرة السِباع والذئاب. تُقاتل أكثر ممّا كانت تقدر. تُقاتل في حرب ولا رشّاش في حوزتها. لو لم تنهب هذه اللوبيات قوت الشعب كعُنف الجراد، أما كانت قد انجرفت إلى هاته الصدقات الرديئة؟ النّظام المصرفي احتكار عائلات مُتسلّطة دعوة لسحق المُنافسة الاقتصاديّة وحتّى وأد انتفاضة الشعب المسكين. تُعدّ العائلة المُتنفّذة المُلقّبة بأبناء الاقتصاد المُظلم من بين المُنتفعين الأوائل في الوطن. رُهط من الرهوط الفاسدة. اجترموا وأفلتوا من كل ضُروب القصاص الأكيدة. تستقرّ العائلة بالولايات المُتّحدة الأمريكيّة وتُحوّل الأرباح إلى أرصدتهم المصرفيّة. يعيشون حياة لا يحلم بها الأمريكيون أنفسهم، في حين يُنتهك أبناء هذا البلد حقّه. من سيُحاسب من؟ إنّهم الأبالسة والملائكة. تَحَيَّنَوا غِناهم من نهب رصيد النّاس لجعل المافيا الجديدة سهلة الانقياد، ناهيك عن دسّ إكراميّة تُقدّر بثلاثمائة مليار في محفظة رئيس الحزب الإسلامي لفوائدهم والبدء في تدنيس دوائر الوطن ثانية. هذا التلاعب لم يكن من عبث.

"بل من رسكلة بارون ماسوني مُسيطر على البنوك العالميّة"

"كيف؟"

"من أهمّ تعليماته سداد مَنَاعَة ومتانة لأبناء الاقتصاد المُظلم"

"سمعتُ عن هذا"

"توافقهم الخيالي أفضى لخداج الثورة قبل ولادتها"

"ألم يكن واحد منهم صهر الرئيس المخلوع؟"

"تطلّق دعوة لرسكلته وبعثه من جديد"

يتعمّد أصحاب البنوك السيطرة على المناخ، بل وحتّى تدميره، إلى أن يسود جو من الفوضى والسواد الخانق. لهذا السّبب يُصاب الكثيرون منّا بالقلق والكآبة وأمراض نفسيّة أُخرى بمُجرّد أن يتغيّر لون المُناخ. قد يستيقظ أحدنا في حالة من الفوضى ذلك من الضباب السامّ المُنبعث. إنّها أساليب قذرة يستعملونها.

"هل سمعت يومًا عن مشروع هارب السري؟"

"كلا"

"سلاح فتّاك يُموّله أرباب البنُوك، فهو يُزعج المناخ عن طريق قصف الغِلاَف الجوِّي بأشعّة عالية التردّد، كما يمسّ أيضًا من الدماغ البشري"

"وما هدفهم من كلّ هذا؟"

"السيطرة على كل قوانين العالم وتخويف خصومهم"

"هذا عالمنا كذلك"

"إنّه عالمهم فحسب"

"كيف يُرهبون أعدائهم؟"

"من خلال خلق الكوارث الطبيعيّة"

"والنهاية؟"

"الترتيب للنّظام العالمى الجديد"

ويرشح صوتها حاجة مُتّقدة:

"كان والدي عامل يومي"

"أنا آسف لما حدث لكم"

" بالمُناسبة أنتَ وأختي مُتجايلان"

"أحقًّا؟"

" درستها سنة واحدة في الثانويّة"

"ما اسمها؟"

"سناء"

وذكراها تنسكب على حين فجأة. مثل سوط الشمس في قيظ الظهيرة. درسنا معًا. شقيقتها ذات السّادسة عشرة ربيعًا آنذاك فارقت مقاعد الدراسة لأسباب غامضة. رأيتها مرّات قلّة منذ ذلك الحين. ورأيتُ خجلًا بَاطِلًا في عيني "هالة" كأنّما تبكي. يرعف وجهها كآبة مُمتدّة من الماضي. تُنفث الضباب من فمها. تتسابق أنفاسها. أكاد أسمعُ نبضها المحروق والسرّي. يتناهى إلى سمعي موسيقى النّشيج تنزّ ضَيَاعًا مُفجعًا. الألم أُغنية مُترامية الضجّات والهُتاف. بُؤس الحياة ينقرها. يغمرها شيء من التيه الجليّ والمبهم. شيئًا يقبض بأنفاس العالم المُلغّز والمرتاع. لقد

وثقت بي وهذا عهد لن أخونه أو أُفشيه على أيّة حال. شُعوري بالعاطفة يُنعشها. أحسبُ أنّني بدأتُ أتعلّق بها؟ كنتُ قد فارقتُ الحُب منذ غابر الزمان وماعاد يقرع سياجي ولا أنا عدتُ ساكنًا عند مدخل سكناه. أحسبُ أنّني بدأتُ أُحبّها؟ لكنّني فقدتُ مكنتي على مُبادلة الحُب بالحُبّ. أ بدأتُ أتعلّق بها؟ ما عاد في قلبي مكان شاغر لهاته الأحاسيس. الانسان الّذي يطمئنّ قلبه له أن يسرّ بالكمّ الأكبر، وقد يكون عارياً وموعودًا كثيرًا، ومع ذلك ليس له أبدًا أن يلمس أعمق ما لديه، ما يُخبّئه في الأماكن المظلمة. أنا عن نفسي، متى يطمئنّ قلبي، يظهر ذلك في أطواري. أحسّ أنّ أدنى إهتمام يُقدّم لي يتحوّل فجأة إلى حُبّ حتّى وإن كان من قرد.

في بكرة اليوم الموالي، تحوّلتُ إلى الواجب التالي. كانت مُسَاءلَة وافِر العملاء الّذين يكتنزون أموالهم عمّا إذا كان لديهم تخيّل عن مصير أموالهم. كل الأجوبة كانت لرفع قِسْط أموالهم دون التَعَمُق ودون إِفْصاحٌ أدنى إيضاح. كما أنّ اثنان وثمانون في المئة من المستطلعين يُشكّكون في المَشاريع الخفيّة التي تُستغلّ فيها نُقودهم. طغى غياب تقارير سنويّة على الثقة بين البنك والعملاء. التقرير السنوي يُعد وثيقة مهمّة لإِخْطار العملاء بإِثَابة هيكلة مدخّراتهم. ما لا يطّلعُ عليه الأكثرِيَّة أنّ المدخّرات عيونها لا تنام. تُستفاد المدخّرات لإحداث التباس في العالم. تستثمر البنوك وشركات التأمين في الطاقة النوويّة والفحم ووَضْع اليَدْ على الأراضي والتَّعدين

والنّفط. يظلّ الاستثمار المسؤول اجتماعيًا غير معروف نسبيًا لعامّة الناس، ذلك من فقد المعلومات من حَاشِيَة المُؤسّسات الماليّة.

قال أحد العملاء في حين كان يرقبني باختناق:

"ما هي الحُلول البديلة؟"

"إليكَ حلّين لمدخّراتك لخدمة تطلّعاتك وتحسين العالم"

شرحت له مقترحاتي الّتي سأنقلها للرئيس "نجيب". لكَ أن تودع مدخّراتكَ في دفاتر التنمية المستدامة. والتضامنيّة. هو حساب توفير مُنظّم. تشترك المبالغ في تمويل المشاريع الخضراء مثل الطاقات المُتجدّدة والمُؤسّسات الصَّغيرة والمُتوسّطة وكذلك الاقتصاد الاجتماعي والتضامني. لفتحه، دفعة صغيرة كل ما يستلزمه. المدفوعات اللاحقة حسب تقديره. مثل دفاتر الحسابات المُنظّمة الأخرى، فإنّ الفوائد المُكتسبة مُتحرّرة تمامًا من الضرائب. ثمّ تغرّبتُ إلى المقترح الثاني ألا وهو المحافظ الاستثماريّة. له أن يُخيّر تَصْوِيب قِسْم من رأس المال الخاصّ به نحو اقتصاد أكثر مسؤوليّة وأكثر وعيًا بالبيئة. له كذلك استثمار هذه الأموال في المشاريع المنتقاة على أساس ضوابط ماليّة تكميليّة وبناءً على حساسيّتهم، مع الحوكمة الحَسَنة. يخلق هذا عنصرًا جوهريًّا للتنمية المستدامة. أتي بالذكر إلى المحافظ الموضوعيّة: وهي ذات علاقة بفكرة رئيسيّة، كالطاقات المُتجدّدة والقُروض الصُغرى للطّبقة الهشّة، وما

إلى ذلـك. هذا نَظِير ممتاز على كيفيّة سَـطْوَة البُنوك عـلى النّاس وتَرْغِيبهم عـلى التحوّل إلى البيئـة الخـضراء ومُنَافَحَة الاحتباس الحـراري، مع ضمّ الاقتصاد في الوقت عينه.

ارتكنـت في نصف جلسـة على مقعد وفـير. كان الرئيس يُرتّب بعض الملفّـات في صناديـق كرتـون كبيرة. بـدأتُ ألوك في رأسي ما سـأقوله بلا خُشـوع. اختلـط عطري بعطره ففـاح عطر تعدّدي في المكتب. أستنشـقه بشراهـة. أحسّ بامتداده اللاسـع في قفـصي الصدري مُتغلغـلًا إلى رأسي كقصف الريح.

بَـرَكَ على كرسـيّه الجلدي المُتحرّك، فتح قفـل جاكيته الرمادي، وقال بعينان تشعّان ضجرًا:

"بما أخدمكَ؟"

أحسّ أنّ نبرته تتحسّس دواخلي وتشدّ أعصابي." لي بعض الأسئلة" يفحص براءة الملامح في نفسي، أكثر ممّا ينبغي:

"تكلّم"

نقلـتُ له ميْـلي في إجراء بعـض التحديثات بالبنك. اسـتعاضة تذاكر المُوزّع بإيصال إلكتروني. هذه الورقة-الّتي نجدها مكدّسـة في الشـوارع بدلًا من وضعها في علب القمامة-ليست بسيطة. إنّه ورق حراري يحتوي على بيسفينول أ. يُمكن له أن يخترق الجلد ويُسبّب الأورام. كشفت دراسة

أنّ الصرّافين الّذين يتعاملون مع معظم الإيصالات لديهم معدل BPA أعلى بكثير في بولهم. كما يُمكن أن يساهم التخلّص من نفايات الورق في انبعاثات غازات الاحتباس الحراري. يزيد استفادة الأراضي من تهديد محو الغابات، مما يُؤدّي إلى تكثيف التعرية. الميزة الكُبرى في مقترحي أنّنا سنتّعض عن الورق، ذلك أنّ المشاكل المتعلّقة بالأضرار البشريّة والتلوّث البيئي لن تكون موجودة، علاوة على رفع عدد المبادرات التي تسعى إلى الحدّ من سَطْوَتها على البيئة. مثل تقليل الانبعاثات المرتبطة بالتنقّل والإستعاضة عنها بحضور المؤتمرات الفيديو والتعلّم الإلكتروني. فضلًا عن تقديم منتجات مُصمّمة بيئيًا أو صديقة للبيئة أو مستدامة.

أخذ يضحك عن ما جئت أقترحه عليه:

طَرِبَ لَهَزْجي." إنّها من مشمولات وزارة البيئة وليست من مشمولاتنا"

كان هنالك شعور مُروّع أخذ يحدّ على نفسي:

"ما قلته يُعدّ جزء من المسؤولية الاجتماعيّة للشركات التابعة"

ردّ مع ضحكة السحليّة." قلتَ ذلك بنفسك، "الشركات" ونحن "بنك"

سقط صوتي وجُبلت بالصدمة." ولكن؟"

هذا الربّ العليم بكل واردة وشاردة كالأنوار الكشّافة، لا يعرف أنّ

البنـك كيان اقتصادي، ممّا يعني أنّه شركة. رَجْفَة برق تسـقط تمتدّ بغتة في جميع أنحاء جسـدي. انتقل بي الحديث إلى الاسـتثمار المسـؤول اجتماعيًّا، محتـوى "التنميـة المسـتدامة" للمشـاريع المُموّلـة. حيـث يتمتّـع البنـك بالشـكِيمَة على ضَبْط العالم الّذي يُوحّدنا، كالطاقات المُتجدّدة الّتي تتمثّل في الألواح الشمسية وطاقة الرياح والطاقة الحرارية الأرضية. أي الانتقال إلى الاقتصاد الخالي من الكربون. إنّنا أمام أسوأ سنوات حياتنا، إذ نُسجّل مُستويات عالية من تلوّث الهواء.

"صيغة استثمار الأموال تُسوّي الاستقرار كما تُسوّي الاختلالات"

أخذ يُعرّي كل شيء:

"هذا بنك لا يعنيه شيء سوى إدخال الأموال بأيّ وسيلة"

"أعلـن البنـك في موقعـه الإلكـتروني أنّـه يحـترم البيئـة دون مُوافاتنا بالتقارير"

ويُزيح عنهم أكداس الفضيلة:

"لا يُمكننا إخبارك عن مشاريعنا، ولكن تيقّن ضمنًا من أنّ الربح كل ما يهمّنا"

"حتّى وإن كان على حِساب الطبيعة وصحّة النّاس"

شرس التّعبير:

"بكلّ تدليل"

"حتّى لو خَبرنا كارثة شبيهة بكارثة تشيرنوبيل وفوكوشيما؟"
البخار الأسود يتسلّل من عينيه حادًّا ومُظلمًا." المال هو كل ما يهمّنا"
وفقًا لُمنظّمة أوكسفام، "ستّة بُنوك فرنسيّة تجرّنا إلى عالم أسوأ بمقدار أربع درجات مئوية" ذلك من المشاريع المُتعلّقة بالوقود الأحفوري. ناهيك عن البُنوك العربيّة الّتي تُساوم على الأنشطة التمويليّة والاستثماريّة اللامسؤولة بتدمير البيئة.

وصدى صوتي يتقطّع:

"الكوكب ينهار، لديكم جُزء من المسؤولية في هذه الحالة"

تهكّم آخر يضربه كالبهار:

قارب على لكمي، لكنّه شرب من إبريق الماء." لا يهتمّ البنك بمقترحاتك"

"ليس في مستطاعنا أن نأكل النقود ولا أن نستنشقها ولا حتّى أن نشربها"

وفي كلّ مرّة أُقابل بالهزء." سنصطحبك إلى منطقة البحر الكاريبي إذا حدث مكروه"

ويضحك سخيًّا.

رقعة من وجوم مُرتبكة.

وحادّة.

ويقينًا كان على وشك أن يقول لي جيئني بقهوة. ممّا لايدريه أنّنا بحُمق مشـاريعهم وحاجتهـم لنيـل مزيدًا من المـال، غدًا سـيكون لدينا زجاجة أكسجين مُعلّقة على قِفانا. ملفوفون في أردية تقينا من الإشعاع النووي السامّ.

وجدتني مُتحجّرًا وملسـوعًا. أبله القسمات. تتدفّق الدماء في وجهي. يبـدو أنّ التناقش معه مُسـتحيل. ثمّـة شيء يرتعد، يهتـزّ، يحفر في رأسي. وأنّنـي متربّـص سـاذج مُسـخّر لتسـليتهم. ثمّـة شيء يشـدّني قصيًّـا إلى مُستنقعات الرأسماليّة.

أين تَعَهُّد البتّ في الآثار الاجتماعية والبيئية لاستثماراتهم؟ وأين إِقْصَاء أسهم الشركات الّتي لا تستوفي مقاييس مُعيّنة من دائرة الاستثمار؟ ما أقرّه لي أنّ غَالِبِيَّة اسـتثماراتهم-إن لم تكـن كلّها-تتمحور وبوجه أخصّ حول فِتْنَة البيئة، منها الإحتباس الحراري، ذوبان الغطاء الجليدي، الفيضانات، التصحّر، واختفاء أنواع الحيوانات. تخيّلته يقول لي إنّهم يعملون على إبادة العالم عن طريق تمويل مشـاريع تُؤدّي إلى هلاك الانسـان. وأنّ مشـاريعي صبيانيّـة، وغير ناضجة. وأنا الّذي كنتُ سـأطرح عليـه كالأبله أن يُبدّل مـن صكوك القـروض وأن يُدخل مُواصفـات مُتفـرّدة يحترمها المقترض أثناء تشغيل الحصّة المُقرضة من البنك. ما لا يدريه عامّة النّاس أنّ للبنوك أذرع خفيّـة كامنة في أكثر الأماكن حقارة، تُحرّك العالم وتُشـكّله بالشـكل الّذي يُناسـبهم، كشـأن العائلات النّبيلة الّتي تُقـرض مبالغ طائلة للدولة

شريطة أن تتدخّل في قوانينها وشؤونها. يُسيطر روكفلرز، ومورجانز وروتشيلدز على جميع المُؤسّسات الماليّة في العالم ، بينما بيت آل سعود، فهم يُسيطرون على عشرين بالمائة من احتياطيات النّفط العالميّة.

بلغ الصقيع في رأسي جارحًا. يدوي هزيم الرعد المُمزّق في رأسي فظيعًا. جاهدتُ قُبالة الرئيس أن أُسيطر على نفسي وعشوائيّتي، دون جدوى. والرعد يُنصّبني في أماكن حالكة تقتحم براري وعوالمي المُرعبة. ترأسها العفاريت والمخلوقات المُظلمة ذات العيون المفقوءة. وكل منهم يفحّ في وجهي بعبارات مُتقطّعة حارقة لا أفهمها. مُتحفّزين لقتلي. يتحدّثون بشيء خطير أُجاهد في فهمه. ومن يفهم لُغتهم؟ لُغة العفاريت والشياطين. ترجم لي واحد منهم أنّهم مُستعدّون لتفعيل برنامج المسؤوليّة الإجتماعيّة في عوالمهم النّاريّة والصحراويّة شريطة أن أستسلم لمرض الفُصام وأنظمّ إليهم. تبرق في وجهي حياة حزينة مُوحشة. أُجيبُ بـ"كلا". ينعقد الكلام في حلقي فلاشيء أقوله بعدها. تصفعني الأيادي المُمتدّة من الأركان الشريرة و الواقِدة. غالى الألم بمزيد من الألم والجُنون اللَغْو. كُنتُ أرتفع في مكتب الرئيس. أُحلّقُ في الفضاء كُدمية قطنيّة مُثَقَّبة. أطلق رجليّ المُتدليّتين في حركة برغيّة أنفجر فيها رقصًا. بلدنا غاوي رفض لكنّه غاوي رقص. فوق عاصفة مستهترة تشدّني حدّ الأعصاب أُمتع الرئيس بغبائي ومُناغراتي. سئمتُ الرقص

والجُنون. سئمتُ الحياة ونفسي. سئمتُ كوني منذ سنوات أُقاوم طيف الفُصام بلا مُبرّر. ليس هُنالك شفاء يجيء. وليس هُنالك مُنتصر بيننا. أتوسّل القرار وصُدفته وما من مُجيب. يُتابعني الرئيس بعين ورعة وسامّة وآمرة. يرشق عليّ آلاف الملايين تتطاير جيّاشًا. أقول بلوعة وبلادة أنّي لا أُريد المال وتسلّطه، بل عقلي وانتظامه. أودُّ أن ينصلح كل شيء أن ينتظم، أشتهي أن أُحقّق العدالة، أن أنثر السّلم، أن ينعم كل ما حولي بسكينة لا تنقطع. الرئيس لا يزال يُمطر هَدْرًا أوراقا في قمع. يحلمها تيّار الريح وتلج الزوبعة. زوبعة الأثرياء والإقتصاد الفاسد. شيء كاوٍ يشرق في قلبي يتّبع الرأسماليّة وشراستها. يُقلّب شيئًا يُماثل الخنق والاستعباد، يُكهرب شيئًا أَحْنَقَ سطوة، يخضُّ شيئًا تُغضبه الحُريّة، يرجُّ شيئًا يطرح اللسع واللدغ. وكُلّي تهكّم لأنْ أصرخ، وكُلّي تهكّم لأنْ أُخالف و أنتفض.

لا يُمكن تحقيق سلام دائم
دون أن يَجد جُزء كبير من السكّان وسيلة للخُروج من الفقر.
محمد يونس

(2)

مـع إشراقة الصباح الصّاقع، تلمّسـت مُشوّشًـا عُلبة الـدواء وكانت عـلى وشـك النفـاد. ها قد انقضت سـنوات شـتّى منـذ أن توقّـع لي أحد أطبّاء الكلى بالسّرطان. أ سيُؤيّد القدر ظَنَّهُ ذاك؟ فكرة أنّ شـعري ينمرط ووجهـي يُجَانَـس الموت تُخيفني، دون شـكّ، أكثر من فكرة أنّني سـأنتهي بالسّرطـان. إنّنـي قد غُلبتُ وتخـيّرتُ الفشـل طواعية. وإنّنـي قد فقدت بالفعل كل بادرة في علاج هذا المرض الّذي لم يتثَقَّف فيه الأطبّاء. كان لوثة أصابتني، ذلك من مضادّات الاكتئاب ومُضادّات الذهان. لم يُطالبني أي شـخص بمُزاولة الطّبيب وثبتُّ على أخذ دواء عُشـبي بدون وصفة طبيّة. كان لا بُـدّ لي أن أعرض نفسي على طبيب كلى سـادس ليطمئنّ قلبي. من غير المعقول أن أداوم على تناول دواء لسـنوات دون دراية مَغَبَّته المُرجّحة. أرجأتُ هذا الفكرة إلى وقتٍ ما. رفعتُ رأسي. عند الباب نسـفت الريح شعري ودخلت البنك في يقظة تامّة للقسم الثاني من المسؤوليّة الاجتماعيّة

للشركات، ألا وهو الاندماج الاجتماعي من الناحية الاقتصاديّة. أستطيع تبصّر تهكّمات الرئيس "نجيب" مع تعالي ضحكة السحالي. وتشمل هذه الجهة المُزاولات التّي تقصد صقل حياة الفقراء ومُفَاتَلَة أشكال الفساد قَاطِبَة والمُتّصلة بغسيل الأموال بوجه أخصّ. يُقدّر الفقر مُعْضِلَة جوهريّة تبَطُل حياة الأفراد. لا تُخاطر البُنوك بمنح قُروض لذوي الدخل المَحْصُور أو العاطلين عن العمل دون مُثول ضمانات لسداد هذا الدين ضمن الفوائد. تسلّلت مُتسوّلة إلى البنك شبحًا مُفزعًا، مُتوسّلة للعملاء أن يُعطوها نقودًا لعلاج الروماتيزم. وكل ما في هيأتها يرشح غُبنًا وبُؤسًا. تُطلقُ شهقات مخنوقة قادمة من صدع لزنزانة الجِياع والمِعذّبين. سحبتها "مرام" مخزونة بالظلمة وألقتها إلى حيث الصّقيع والريح والوحشة والعراء. عاد الضجيج المَحْرُور يعبث برأسي ويؤذي أعصابي. عاد الكسر المُرعب يسحب نفسي. أبدًا بحثتُ عن السّحر الأبيض الّذي يُنقذ البشريّة. ومتى خمّنتُ في الأبديّة، تخطر ببالي حُفرة واسعة، حُفرة غير معروفة العُمق. مقصوصة إلى نصفين. محشوّة بالثعابين وحشرات كثيرة الأرجل. وأنا محشورٌ بينهم دون أن يكون لي ذنب.

قالت ساخرة تبرز فيضان السواد المعتوه النّائم في كهوف أعماقها.

"أوساط شعبيّة قذرة"

تمتمت شرسة وأَجّاجة:

تُطلقُ أفاعيها." هوكش"
قُلت وقلبي يقطر دمًا:
"علينا أن نُساعد البُسطاء"

كُنـتُ أظنّها خرسـت لتغضـب، فتأكّد لي أنّها كانـت لتتجاهلني، كما تجاهلت تلك المُتسوّلة.

في تأنّيها مضت مُتوتّرة تُوقظ في نفسها حركات البُورجوازيّات. دون أن تكـترث لمشـاعري عن كـوني من البُسـطاء، أنا الآخر. أقبـعُ في مكاني كجُثّـة ثقيلـة. تهيّج الليل يسـتولي على قلبـي. أُدرك، بعد قضـاء الوقت، رُغمًا عنّي، أنّ كلّ الأشـياء مُتسـاوية، الحياة كما المـوت، الأحلام كما عدم تحقيقهـا، الحُريّـة كـما العبوديّـة. أيّ جُرم أتـى بي إلى هذا البنـك القبيح؟ مثل القِلاع المهجورة والمُخيفة. لم أفعل شـيئًا سـيّئًا لأي شخص في حياتي كلّهـا. القلب يرعف ألمًا مُنقبضًـا مُتفرقعًا وكل خُططي لتحويل العالم إلى عالم أفضل تختلج وتنتفض. سُرعان ما يتوهّج الفسـفور من أعماقي. هذا النّظام الّذي أسـعى لتأسيسه في البنك لا يدمج الفقراء فحسب، بل يروم خريجـي الجامعات كذلك. وعن أرقام المعهـد الوطني للإحصاء، قُدِّرت وتيرة بطالة خريجي التعليم العالي في الربع الثالث من عام ألفين وعشرين بنحـو ثلاثـين فاصل واحد في المائـة مُوَاجِه ثمانية وعشرين فاصل سـتّة في المائـة في نفـس الفترة من عام ألفين وتسـعة عشر. يُومئ هـذا على أنّ عدد

العاطلين عن العمل رَمَقَ تحوّلًا غامضًا ومُستمرًّا في الأشهر القليلة الأخيرة. إنّ بطالة الخرّيجين ليست مَغَبَّة الشطحات الاجتماعيّة والسياسيّة الّتي حَقَّقَت تَقْويض الكيان، وإنّما مَآبُ وخيم لاقتصاد الوطن. إنّه لحال جِلْف في أيّامنا هذه أن نعثر على اسهامات مُلائِمة لعَائِقة البطالة، في ظلّ تسريح الشركات قِسْم من قُوّتها العاملة. يضمّ التمويل الأصغر المُنتجات الماليّة بما في ذلك المُدخّرات والائتمان والتأمين، وهي تُسَاوِق ذوي الدخل الوَطِئ المُتجاهلين من النّظام المصرفي التقليدي. أكبر حِصَّة من الأسر المُعْدَمة لها أن تغنم على خدمات مالية تفي مُتطلّباتها. بعد ضبط مفهوم التمويل الأصغر وإِبَانَة فاعلية تجسيم الثروة، فإنّ خمسة وثمانون فاصلة سبعة مُقابل أربعة عشر فاصل أربعة مُستجيبين لدسّ أموالهم في حساب توفير تضامني لمُعَاضَدَة دعاوى التمويل الأصغر حتّى يقدر الأشخاص في الوضعيّات الكَؤُودة من إِتْيان الخدمات المصرفيّة. في مستطاع البنك أن يعرض على الأشخاص الّذين لا يُتَوَقَّع تمويلهم عن طريق القُروض المصرفيّة التقليديةّ، مع الأخذ في عين الاعتبار ميْلهم المُخاطر ومَغِيب الضمانات: منتجات الادّخار التضامني المستثمرة جُزئيًا في مشاريع الائتمان الصُغرى. بمقدور العملاء الأفراد والمُوظّفين والمُستثمرين من المُؤسّسات إيلاء فضيلة لمُدخّراتهم. أو أن يُنيل البنك قروضًا لمؤسّسات التمويل الصُغرى بحيث يمُكنها بدورها تَقْرِيب قُروض صغيرة للفئات

المحرومة والمُستبعدة من النّظام المصرفي التقليدي. إلى مكتب الرئيس أدخلُ خفيًّا. إنّني شبيه بذلك الشخص الّذي سُجن، وحُجب عنه الضوء والأمان، وبدأ ينطق بكلمات من غير معرفتنا. يحدوني التمنّي المُتعنت إلى النّضال، ولكن أ من شأنهم أن يُناضلوا من أجلي؟ كان عليه أمارات الضيق، كأنّه شهد مأتم ما، ذلك أنّنا نشترك ذات المتجر الّذي نشتري فيه الجوارب. اكتشفت ذلك بالصدفة من التاجر.

"عن أي شيء جئتَ تسأل؟"

أستنشق بارفانه الجديد، أظنّه من ماركة أزارو. قُلتُ ما أُفكّر فيه:

"يوميّات الفُقراء هلاك دائم"

"وما شأنكَ بهم؟"

"أستميحكَ عُذرًا؟"

"ما شأنكَ بالفُقراء؟"

"لابُدّ للبنوك أن تُشاطر في النّضال ضد الإقصاء الاجتماعي من خلال خلق مُستقبل إنساني"

"تُريد مناّ أن نُعطي قُروضا دون ضمان لأبسط النّاس؟"

"خلق مواطن شُغل وتعميم السّلام واجب"

"لأي شيء تأتيني بالسّخافات دائمًا؟"

"السّخف ألّا يجد أحدنا شيئًا ليأكله في حين يُبذّر آخرنا كلّ ما يملكه"

"عش حياتكَ ودعكَ من خلق السّلام للفُقراء"

"أنـا قريـب مـن المُجتمـع المحـلّي ولـديّ موقـف إيجـابي لإدراج كلّ العملاء"

"كفاك حمقًا"

"أنا لستُ أحمقًا"

"ولا كلمة"

"أنا لستُ أحمقًا"

"القُروض الصُغرى ليس لها وُجود في بلدنا"

"دعونا نُنشئ لوائح أكثر مُرونة ونسمح لها بالانتشار"

"لن أمنحهم قُروضًا، فرائحتهم كريهة"

"هم ليسوا بهذا السوء"

"بلى، لن أُدخلهم إلى مكتبي"

"إنّهم في حاجة إلى من يمدّ إليهم يد العون"

إذا أخذنـا أربعة أشـخاص مُتخصّصـين في حُقول مُختلطـة (الخياطة، الجماليات، الزراعة، الطبخ) مُستثنون من النّظام المصرفي التقليدي، مُبادرة البنك تكمن في إنالتهم قروضًا صُغرى لإنشاء مشاريعهم الخاصّة مما يجعل من الجائز التصرّف بشـكلٍ سـوي مع مَأْزِق البطالة. يُتيحُ هذا الاستهلال للأشـخاص الّذيـن ليس لديهم أموال بإقامـة مشروعهم الخاصّ في قطاع فيه كَسْـب والبـدء في نَيْل لُقمة العيـش من خلال الإِتِّـكَال على معرفتهم

وبمُؤازَرَة خبير لهدايتهم حسنًا في مراحل المشروع كلّها: ضبط تحدّيات الشركة، تصوير أفكار غير مسبوقة، دراسة أحكام سداد القرض، كما يُعزّز العُملاء على إدارة أموالهم، بحيث يُزاول دور القائد. تسعى هذه المُبادرة إلى تسهيل وصول ما أمكن من الطبقات المُعوزة إلى القُروض الصُغرى من خلال تحسين أهليّتهم ومُمارساتهم في تسوية المشاريع بتعزيز التكوين المُستمرّ. إثر إطلاق مشاريعهم، سُيتاح لهؤلاء الأشخاص من خلق عروض عمل وتعيين مُتعاونين عاطلين عن العمل وتمهيد الطّريق لإدماجهم في الحياة المهنيّة. هذا البرنامج بمثابة جهاز أَلْمَعِيّ لمُدَافَعَة الفقر، كما يُزَوِّقُ الظُروف المعيشيّة، ويرفع احترام الذات. كانت سنغافورة، مارقة، في وقتٍ ما، استشرى فيها البُؤس والخصاصة وكل ألوان الجرائم. كان تقويمها خيالًا. لكنّ رئيسها دلّل أنّ الخيال يجب أن يكون حقيقيًا، من خلال الالتفاف على الجوانب الإنسانيّة، أعطى الاقتصاد والتعليم شأنه، واسترخص، في المقُابل، مكانة السياسة وأنظمة الحُكم. إنّ تكوين الإنسان أَخْلَقُ من الإنشاء له.

" يُجيزُ للفقراء بحماية أنفسهم في الحالات الأكثر هشاشة كالمرض والكوارث الطبيعيّة"

وكان هذا المُقترح يُضحكه." أأنتَ من أولئك المُغفّلين الّذين يُريدون تغيير العالم؟"

"أنا لا أسعى لتغيير العالم بكمّ ما أنا أسعى إلى تغيير نفسي وأنفسكم"

"الفقر طبيعة كونيّة"

"الاعتراض على مُساعدتهم جريمة"

"إنّنا نُساعدهم من خلال تقديم قُروض كُبرى لبدء المشاريع وانتدابهم"

"بدلا من ذلك، يتمّ استغلالهم من قبل من هم في السّلطة"

"كلّا أيّها المُقلق الصّغير"

"من الضروري خلق استقلالهم"

"أنتَ غريب الأطوار"

"إنّي أُناشد السّلام"

" ناشده في بيتكَ"

" أيّها الرئيس؟"

"هل لديكَ أي مقترحات ساذجة أخرى؟"

لا أستطيع مزيدًا من الإهانات، قُلت:

"أُريد أن أتحدّث عن طُرق مُكافحة غسيل الأموال"

مع تضاعف هيمنتها، تسعى الرأسمالية إلى كسب المال بأقذر الطرق، بما في ذلك المخدرات والمواد الإباحية والأسلحة والاتجار بالبشر والاحتيال. كل شيء مُسْتبَاح شريطة جلب المزيد من المال بكلّ الوسائل، وعلى حساب الدمار البشري.

راح يلهث ويهتزّ حتّى بدا صوته مُحطّما:

وشك المسكين أن يُغمى عليه." اذهب إلى سي" سلمان "

داعب ربطة عُنقه الّتي تصل إلى كرشه المُنسكبة.

يلوك اللبان.

قلتُ لستُ واثقًا من ردّة فعله:

" بارفانكَ من أي ماركة"

"أأعجبكَ؟"

"إيه والله"

"بارفان أزارو وانتد"

"لويس ازارو نشأ في تونس وانتقل إلى باريس في سنّ السّابعة والعشرين"

"وبعد"

"لو بقي في تونس لما ساعدته البُنوك على تأسيس وكالته وداره"

"وبارفانكَ من أي ماركة؟"

"بلو دو شانيل"

"إذا تصدّقت بنُقود عطرك للفُقراء، واشتريت عطرًا من الأسواق أما كان أفضل لك؟"

"إنّه هديّة عيد ميلادي"

وصلت أصابعه إلى البخّاخ من درج مكتبه وعطّر فمه.

قال" آفة"

أجفلتُ بُرهاتٍ من الزمن وتأمّلتُ وجهه الأربعيني. شعرتُ بضرورة إلى الصّياح. ولا أدري ما يُمكن أن يُصيبني بعد هذا التصريح. أُخلّص إلى المعرفة أنّ الإنسانيّة مفقودة في مكان العمل وخارجه. وأنّ عبارة "الفرد للكلّ والكلّ للفرد[1]" محض كلمات لا تعني شيئًا أمام الرأسماليّة. مَغيب التماثل بين النّاس أعقب عنه مزيد من المرارة والاستياء الطبقي. هذا النّظام البربري والمُرعب لا يُريد من العالم إلّا التّعاسة وتهميش مناهجه. فشل حتّى في تسويّة وضعيّة الّذين اندمجوا في الحياة العمليّة. حقّق لهم الظلم والصّمت القاتل. أَتْأَمَ عن إنحيازه للأثرياء الخراب والجريمة وخلل اللوائح. فضلًا عن المضرّ النّفسي والإنتحار. في بلد لا تُديره دولة، بل رجال أعمال وعاصمتهم، أسعى جاهداً، لبسط شيء من السّلام، بحيثُ تُصبح الحياة أقلّ قسوة، وربّما، أكثر قُبولاً. لقاح الرأسماليّة يكمن في تبنّي برنامج المسؤوليّة الاجتماعيّة.

"لن أتي يوم الجُمعة"

"لأي شيء؟"

"سأُقابل فيه مُؤطّري"

"سأشتاق إلى تُرّاهاتك"

وينتهي الأمر بخُروجي.

(1) "Un pou tous, tous pour un", SOME Yves

مـع اندثار دوافعـي، ومع تقصّف عقـلي، العليل، وتمـزّق عصبوناتي، أضحيتُ غير مُهتمّ بإثبات نفسي. ينتابني شـعور مثل الحُروق في رأسي. سـحبني "إدريـس" الأهوج حـارًّا من ذراعي قائلًا مُشـتّتًا: "ستنسـخ لي حفنـة الأوراق هذه" شـدّد كثـور المُصارعة المخنوق يغـوص في دواخلي برُعوده:

شُعاع عفريتيّ ينطلق من عينيه." أُريدها مُستقيمة"

أجبتُ مغلوب على أمري كغيمة مُجهدة:

وكان لصمتـي ذلك العصيان إيّاه." لماذا لا تنسـخها بنفسـكَ إذا كان نسخي لا يروقك؟"

يقتلعُ منّي الأمل والشُعاع والبصيرة." ولا كلمة"

لـو أخذ الله القـوم الّذيـن يُوزّعون مشـاكلهم لعـاش النّصف الآخر في سـلام. والله وحـده يعلم كـمّ كان يُمكن لأمنيتي أن تذرّ السّـلام أكثر حتّـى من برنامجي السـلميّ. وعاد الضجيج مُرتفعًـا مُلتاعًا رعدة ماحقة. مشـحونًا بالزعيق والأسى. الضوضاء لا تخفت. تلتصق بأُذنيّ كوطاويط ماصّة للدمّ. الضجيج الحاد أصبح سُوقِيّ الطلق. يسقطُ على رأسي بهراوة مشـبوبة. أنـا طائـر قُصّفـت جناحـاه. أي شيء أفعله في مـكان ليس منّي ولا أتخلّص منه، سـوى أن أظلّ فيه مكسـور الصّـوت والأمل والإرادة؟ وُجودي طحلبي لا يُنتج ثمرات. أستميتُ في تحطيم سلاسلي، أُجاهد أن

أفكّ معوّقاتي، أسعى إلى نسف ضوابطي. وفي داخلي رعشة لأنْ أضرب شيئًا ما. يخضّني ميْل لأمزّق شيئًا ما، لعلّه وُجودي. لاحت "ميرا" لامُبالية وغير متُحيِّزة مثل قنديل تهمّه مصالحه فقط.

" ستعتاد الأمر"

"هذا سمج"

"كُلّنا مررنا سابقًا بما تمرّ به الآن"

"لا ينبغي أن يُعاد مع كل مُتربّص"

"هذه الحلقة لن تُكسر"

"سأكسرها بنفسي"

"ولا كلمة"

"أنتِ الأُخرى؟"

وابتسمت." أ في مستطاعي التركيز على عملي؟"

لقد فهمت، على الفور، أنّه ما من مجال للمُحاولة، وأنّه لم يبقَ لي أي خيار آخر. ينقبضُ قلبي هشًّا. أشعلت فيّ مدافع الحقد المُستعرة. متى ينجلي هذا الكابوس وأصير حُرًّا. كان لا بُدّ لي أن أُطلق صرخات مدويّة لئلّا ينبجس غضبي. لقد ملكتُ الإفلات منه. وكان الصّمت أبدًا فضيلتي. كانت "ميرا" من هذا النّوع من المُوظّفين الّذين يُمكنهم إدارة البنك بأكمله وكسب راتب ضئيل بابتسامة عبد. أشعرُ بالمُراقبة،

والمُراقبة. وإنّني خائف ممّا أدريه. ظننتني مُتخيّلًا. أعرق حارًّا من مساماتي كلّها. ليس هذا الشـعور نابع من طيْـف الفُصام وحرقه لأعصابي، ولكن من الحقيقة المُقنّعة أنّني تحت الرصد وقذائفه. إنّني أحدسُ أكثر ممّا يقدره أي شـخص آخر. ولكسر هاجس المُراقبة قُمتُ بعمل بخديعة، لمَّا انبرت "ميرا" إلى قفص البارون كسهم، نأيتُ بنفسي عن عدسة الكاميرا الراصدة والدُخان يصعد عند رأسي، أشتمّ رائحة البارود. ماهيّ إلّا بُرهاتٍ، حتّى ترامى إلى مسامعي طرقعات خطر لحذاء الرئيس، تتّجه كرصاص رشّاش نحـوي. كنـتُ أعلم أنّنـي مُراقب. لا ينبغي لي أن أتجاهـل حسّي الدّاخلي حتّـى لو كنتُ أصطرع شـبح الفُصـام وجِراحه. لا يُريدني أن ألمس شـيئًا ولا أن أعـرف ممّا هو مخفي في تلك الصناديق الضخمة. لكنّي وقعتُ على ملـفّ لأحد أبناء مدينتي الّذي صار فجأة مالكًا للمال. أذكرُ أنّه كان مُجرّد حـلّاق ماهر وبسـيط. واليتُ قصّ شـعري عنده. ألقى بحبالـه على أبناء النّظام السّـابق واستولى على أراضي عامة الشعب، فاستخرج منها الكُنوز والياقـوت. أ للبنـك دراية عـن ظُلمة أمواله؟ أسْـتَنْظَرتُ لسـاعات أمام مكتب البارون "سلمان" وثمّ أيّامٍ شتَّى، كأنّ هذا البارون سيضبط بدوره حُكـمًا مُنصفًـا في حقّـي، لكنّه في كلّ مـرّة، كان مثاليًّا في إسـقاطي ومِثالي الهـزء بي. ثمّة شيء تهشّـم بيني وبين هـذا البنك، أجهـل كنهُه، لا أعرف متـى وكيـف. في كل مرّة تُباغتنـي صفعة مُجلجلة تطـرق بي على الأرض.

يتشظّى هذا الكسر ثانية وألبث على وتيرة واحدة وسلسلة مُتواترة من الانكسارات. أقبع مأخوذًا. يتلامح حالي كما لو كُنتُ مبتورًا عن الحياة العمليّة. أنا أُدرك تمام الإدراك أنّ مُعظم الّذين سبقوني من جيل إلى جيل ومن يُعاصروني قد استهلكوا عناصر الحياة كجراد جشع يرشح حنقاً ولم يتركوا لي شيئًا أستفيد منه. أو حتّى أفعله. فسواد البنك كان بارقًا ولم يكن ذا قيمة قط، وأبدًا لم يكن يستحقّ ذلك العناء. أطوار البنك ليست ما أتمنّاه، وأنا في أسوأ حال، ليس في مستطاعي أن أجد أبجديّة علاجيّة لوصف ما أنا عليه الآن. أنا أخرس كعبوّة موقوتة ترتقب متى تنفجر. أرى الأشياء ضبابيّة. رأسي ثقيلة. ألم رهيب يسري في جسدي كلّه، كنصل سكين ينغمد ببطء بلا شفقة. ألمٌ لا يُفارقني على الإطلاق. أقبع أسيره. وليس ثمّة قوّة إعجازية لانتشاله من أضلعي. فكثرٌ أضحوا يرتئونني مُنعزلًا، خَجولًا، لا يُحبّذ الانخراط والاختلاط والاندماج وبأنّ هذا غدا طبعي، ويا ليتهم يُدركون ثقل مهانات البنك الّتي تتمسّك وتزاحمني في جسدي وتُطوّق عقلي، وتُشتّت بصري وتغيم بصيرتي وتُحيلني أبلهًا لا يُطاب رفقته. أتساءل عن الخطيئة الّتي أتيتُ عليها لأُلاقي ما لاقيته من هشيم جسماني واعتلال روحي في هذا المكان الشيطاني، ولكن كل شيء يقول لي أنّ الظلام قدري والتّيه ثنيّتي والانكسار نديمي. كمّ خاب أملي في هذا البنك، على سائر الأصعدة، وعلى قدم المساواة، في البيئة والإقتصاد

والأخلاق، ولاسيَّما خاب ظنّي في الوِصر وفي الإنسانيّة المصطنعة والنّفاق وعدم الكفاءة والمُهاترة والخبرات الزّائفة. ووحدهم الفُقراء وخرّيجي الجامعات لهم عظيم الضّير في هذا كلّه. هذا الشّباب المضلّل الّذي لا يعي عَلامَ وُجد؟ وما الطّائل من بعثه ؟ وما جدوى مهمّته؟ أ ليتخبّط في عتمة مَكابدات لا حصر لها؟ أم ليتفرّس في ما يجدّ وفي ما يطرأ ويكُنْ عاجزًا ومُصفّدًا ومُكبّلاً دون أن يصنع شيئًا؟ ودون أن يعي بمكنون دواخله أحد؟ هذا الشّباب لم يجد من يُرهف السّمع إليه. ولم يُصادف الاحتواء ولا الانتماء ولا الإرشاد. وجلّ حقوقه مهضومة. كما أنّه لم يربح شيئًا من اللوبيّات الّتي تحكمه غير تنامي وتضخّم مساحات من الحُلكة والحنق الخام. تراكمات فظيعة من الأجيال العبثيّة السّقيمة. لقد استنفدت الأجيال معظم مُقوّمات الحياة. سيُدوّن التّاريخ، وإن لم يتمّ تزويره على جري العادة، أنّ الشّباب الحالي، ولاسيّما جيل الثّمانينات والتّسعينات، قد مات بالفعل مُنذ نشأته، وما تبقّى منهم جثّة هامدة تستجيب لمُتطلّبات البقاء. هذه اللوبيّات المُقرفة تُدمّر كلّ شيء. لا أعرف كيف يغمرهم النّوم كلّ ليل.

قال البارون "سلمان" بصوته الأجشّ والصّاعق:

"عن ماذا أتيت لتسأل؟"

"عن غسيل الأموال"

كأُخطبوبـط شرس على سـطح البحر يهتزّ. أحسـبُ أنّنـي قد أيقظتُ فيه شـيئًا لولبيًّا وفاسـدًا لا يُريـد التحدّث عنه. تبييـض الأموال يتمثّل في إخراجهـا مـن أصلهـا الإجرامي إلى صيغتهـا المشروعة. بشـكلٍ آخر هو خلع السُـيولة من نجاستها. إنّها نُقود لا تعرف عقيدة أو فضيلة. عائدات الدّعـارة والاتّجـار بالبـشر والأعضـاء والأسـلحة والمُخـدّرات. يجعلهـا المـصرفي لا تُقـرُّ بطابعهـا الإجرامـي. كتلاعب بعيّنـات البـول في قضايا الكوكايـين. ينطـوي الغسـيل على ثلاث مراحـل. التنسـيب: القصد هو نقل الأرباح غير المشروعة إلى ودائع بنكيّة مُقسّـمة. أو شراء سـلع فاخرة وتدليس أوراق المَيْسر. التشـتّت: إكْنان التنقّلات النّقديّة ذات المُعاملات المُعقّدة لأدنى حدّ من إمكانيّة التَعَقُب. والتكامل: الاستهلال في الاستثمار بصُـورة قانونيّة في أي نشـاط من المُحتمـل أن يكون بمثابة قِـوام لتكوين ثروة جديدة. بغضّ النّظر عن ضحاياه الأبرياء، فإنّ تعزيز غسيل الأموال يُؤدّي إلى عُفُونَة الحُكومات.

قال ملسوعًا ومُتضايقًا:

يتستّر عن نوتات صوته المُتلعثمة." تكلّم"

"أردتُ الإسْتِعْلام عن قوانينكم المُعتمدة ضدّ غسيل الأموال"

"البنك ينصاعُ إلى كلّ الإلتزامات القانونيّة والتنظيميّة والماليّة"

"كيف؟"

يُجيب كأنّه مسكون بالعتمة المُكهربة:

نظراته عقارب تنتظر اللدغ لم يكن قطّ أكثر تعرّقًا." نُمارس مهنتنا بأخلاق جيّدة"

هذا البارون أحسبُ أنّه يستغفلني حتّى أبلى

يسعى إلى التملّص من كل أسئلتي." نكفل تنسيق وتَصْوِيب المشاريع"

"لم أفهم"

ينظرني كعبء يتعيّن التخلّص منه.

"نضمن رقابة قانونيّة دائمة"

"ما هي وسائلكم في الرقابة؟"

"وفقًا للوائح المُرتّبة لمُقَاتَلَة تبييض الأموال وتمويل الإرهاب"

"خبّرني عنها"

أطفأ الأنوار عنّي دُفعة واحدة بوقاحة:

"الولاء والنزاهة والحياد هي المبادئ الأساسيّة الّتي يجب على مُوظّفينا تبنّيها"

ليس في هذا إذن ما يدعو إلى دوام النّقاش العقيم بيننا. ودّعني وصوته كجوقة راعدة. إلى الخارج أنساب مُنتفضًا. إنّي ألتمس الخيط دون هداية. وأشهق. عند المدخل الخلفي جلست أفتقر إلى النّباهة. رأيت أحد

المسؤولين عن جلب المُخدّرات والأسلحة يُودع قسيمة مالية في البنك، دون أن يتأكّد المصرفي الرئيسي من نشاطه ولا حتّى أن يتحقّق بشكلٍ منهجي من مصدر الأموال. كانوا هم أنفسهم الّذين سعوا إلى قتليفي وقتٍ ما، لكنّ القضاء برّأهم بدفقة البقشيش الّذي دُسّ في حقائبهم. تنبّه إلى وُجودي. ترامقنا في حقد. حسبتُ أنّه سيُخرج مُسدّسه ويُطلق النّار نحوي. هذا البنك يخرق كل الأعراف الأخلاقيّة والمهنيّة.

ضربتُ موعدًا لأستاذي المُؤطّر الأكاديمي بالكليّة الفرعيّة ذلك أنّي لستُ على وِئام مع كُليّتي الأمّ. كُلّ الّذي خَبرته في الماضي تيقّظ عقب سنواتٍ شتّى، ولكن بشكلٍ مُختلف، في زمنٍ آخر وفي مكانٍ آخر. كُنتُ تحت مُضايقات إداري مُغفّل. لا يَنِي عن مُهاجمتي بلا مُسبّبات. رامَ إلى التحرّش بي. وبدلاً من ذلك، سعى جاهدًا إلى رُسوبي ووصمني بالمُحتال أمام الملأ ذلك أنّني رفعتُ -بصورة قانونيّة- من درجة أحد المواد الأساسيّة بعد خطأ من كُليّتي الفرع. نزولًا عند رغبته نشأ مجلسًا وأُعيد لي العدد الأوّل، ممّا يعني الأدنى. كان لا بُدّ لي أن أخلع عنه قِناع التقوى وأُشهر لهم وجهه الآخر. دوي اصطخاب القدر يأمرني بأن أعمل بموجب الصّمت. للرجل عائلة سأحطّمها إذا تكلّمت. ومع ذلك كُنتُ سأرجعُ إلى سنة الماجستير الأولى إذا بلغ مجموعي أسفل العشرة. ولأنّ أسلاكه تمتدّ إلى الحزب الإسلامي الحاكم، فما كان من أحد ليصرف دقّاته المدقوقة عنّي.

حسبتُ أنّني أُجنّ ويُعاد بي إلى مُضادّات الإكتئاب ومُضادّات الذُهان، مُجدّدًا. مسؤولا الماجستير كانا في صفّي. عاودني الماضي ليُثبِتَ لي أنّني هذه المرّة لستُ وحدي. حادثتي كانت الأولى من نوعها. وكلّ ما خبرته كان سابقة في تاريخ البشريّة جمعاء.

مسكونًا باليقظة والعدوانيّة أخذ مُؤطّري الأكاديمي قلمًا أحمر وطفق: في الشطب بحركات ساذجة

"هذا معيب"

"أين العيْب؟"

"بعد كُل فقرة، ضع عُنوان المُقتطف وسنة النّشر ورقم صفحة المُقتطف"

"لكنّني لم أنسخ شيئًا"

"هل تُريد أن تُخبرني أنّ هذا كُلّه قادم من رأسك؟"

"قرأت الكثير من الكتب والمقالات وصغتُ مفاهيمها بمُخيّلتي"

يضحك بطبعه الغوغائي. "مُخيّلة؟"

"الكتابة العلميّة كما الكتابة الروائيّة"

"أكتبتَ رواية؟"

"خمس روايات ومجموعة قصصيّة أتلفتها"

"أين نُسخي؟"

"لم أنشر بعد"

"لأي شيء؟"

"النّاشرون يُريدونني أن أنشر على حِسابي"

"ذلك أنّهم يُشكّكون في مدى نجاح أعمالك"

"أنا أثق بنفسي"

"الثقة بالنّفس لا تجلبُ النجاح ، لكنّ الدّعم المالي هو أساس النّجاح"

استطرد وكان أبدًا مضغوط النّظرات:

"أعد كتابة بحثكَ وِفق المعايير العلميّة"

"سمعًا وطاعة"

"حلّل موقف البنك في إطار المسؤولية الاجتماعية للشركات"

"موقفها مضلّل، تُمارس فنّ التخصير الغسيل الإجتماعي"

ثمّة شيء غامض في مُؤطّري الأكاديمي، ألا وهو لا يَنِي عن إطلاق نظرات التحدّي المُلتهبة والمُخلّة بالآداب. نظرت إلى نفسي مُرتجفًا وتساءلت في سريرتي عن الشّيء الّذي يُدعى وُجود. ثمّ وعدت نفسي بألّا أُكلّف نفسي عناء ابتكار المفاهيم. وأن أعتاد على الوضع وهزّاته، على حدّ سواء في الكليّة أو في البنك. لقد تعثّرت، بشكلٍ غير ملحوظ ، من التّعب إلى الحُزن الّذي لا يُطاق. كان لهذا تأثير كبير على حياتي وقلل من دائرة علاقاتي شيئًا فشيئًا، إلى أن استحالت عدمًا. توجهّت إلى غرفتي وأغلقت الباب. اعتراني شُعور رهيب بالغُبن والمرارة، من دون سبب.

كنتُ لا أرغب في كتابة أي شيء. وأفتقر إلى الطّاقة للقيام بأدنى جُهد. وعلى الرّغم من سنّي الصّغير، أشعر في كثير الأحايين بفقدان الشّهيّة في الوقت والمُبادرة. لا أعرف أين أنا بعد الآن. كنت بحاجة إلى شخص يقف بجانبي ويُساعدني وإلّا فإنّني سأتسبّب في هدمي مُجدّدًا. كأصابع ديناميت مُحترقة رنّ هاتفي مُنتفضًا. قرأتُ الرسالة "أترغب في الذهاب في نزهة على الأقدام؟" كان المُرسل "هالة"، وخرجت ضَيَاعًا.

قالت مستاءة:

"ثمّة حياة اجتماعيّة من حولكَ وما فتئت تشعر بالوحدة رغم كل شيء؟"

"أنا أبدًا مُنفرط عن السرب"

"أليس لديكَ أصدقاء للترفيه؟"

"لديّ أصدقاء لكنّنا قلّما نلتقي"

وطمستُ حقيقة أنّني قطعتُ علاقتي العفنة بالجميع ذلك من القرف الّذي أشعر به أثناء وُجودي معهم.

تكهرب شعري. يطفو مناخ من الرطوبة في هذه المدينة السّامّة والمسعورة. أمقت الرُطوبة المُفترسة.

قالت:

"أحدسُ أنّ فيكَ فجوة اجتماعيّة"

"حدسكِ في محلّه"

"لكنّكَ تبدو اجتماعيًا وتحُبّ مُعَاوَنَة النّاس"

"إنّي أجدُ إعْتِيَاص في التواصل"

"أجد أنّك تتواصل بشكلٍ جيد ولكن عليكَ أن تبحث عن أرضيّة مُشتركة تُؤكّدُ لكَ شُعورًا مُشابهًا"

أخذت اعتياد أن أتمطّى على فراشي وأن أُديم النّظر إلى السّقف لساعات. لا أَلْحَنُ شيئًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى أشعر بالأسف على نفسي. أخرج إلى الشوارع ليلاً أنسى آساي، أتنزّه كما يفعل أي شخص آخر، ولكن ما من شيئ في الخارج، هُنالك ناس يخدعون بعضهم، يكيدون لبعضهم في العمل، يُؤذون بعضهم في مجالات مُختلفة من الحياة. أنا لستُ مثلهم، يُقلقني هذا أحيانًا. لا يُمكنني أن أتخابث أو أتلاعب أو أُوهم أحدهم بمشاعر كاذبة ومن ثمّ أُفارقه بشكل سخيف ومُثير للغثيان، من دون أن أكترث بالأذى الّذي من شأنه أن يطاله أو حتّى ما إذا كان حقًّا مُصابًا في قلبه. لا أعرف أنّى للناس أن يعيشوا بمثل هذه الطّريقة. كنتُ أُفكّر في الماضي وأشخاصه ومصابي. ذات حاجة للنُصح، أسدى لي أحد الكِرام عِظَةٌ، كانت بقصّ علاقتي مع الماضي بكلّ ذكرياته، ممّا يعني، حتّى لو جاءني شيء من الماضي مُتنكّرًا في هيئة أُمنية تحقّقت أو شخص آخر مُشابه، فلابُدَّ لي من الرفض. لا خير في شيئ أحدث لي الألم لأنْ يأتي منه الخير فيما بعد، حتّى لو كان في ظاهره الخير، نهايتي ستكون مؤلمة كئيبة.

إنّي بعـوز لأنْ أقطـع صلتـي بكل الأشـخاص الّذيـن كانوا سـببًا لتجربة الأحداث مفجعة، الأشخاص وما في حُكمهم. إنّي بعوز لأنْ أعرض عن الماضي، نهايتي ستبدأ من تكرار تقبّله.

"ألم تقل لي أنّكَ تكتب؟"

"إيه؟"

"الكُتّاب هم أناسٌ يُساء فهمهم فيلجأون إلى الكتابة"

"ماذا عنكِ؟ خبّريني عن هوايتكِ"

"الرسم"

"أنتِ مُتعدّدة المواهب"

"كلا"

"الحياة لا تدور حول العمل"

"الموهبة لن تجلب لكَ المال"

"إذا كانت لديكِ موهبة، فعليكِ إظهارها للعالم"

"كلّا، ليس لديّ موهبة، أُريد المال فقط"

"عليكِ أن تُؤمني بنفسـكِ، متى تُؤمنين بنفسـكِ سيُؤمن الجميع بكِ، الحياة تعني الفنّ وليس العمل والمال"

"إنّي أُريد المال والسّكينة"

السّكينة.

يحـودني يقـين بـأنّ السـكينة الوحيـدة تكمـن في مستشـفى الأمراض العقليّة. لا يكُون هُنالك-على الإطلاق-أدنى إحسـاس بالعراء من العالم وضريحـه وحماقاتـه، ولا من ذكرياتي الوعِرة، ولا مـن فخاخ النّاس الّذين يفرقون عنّي بَاطِلًا في كلّ شيء. سأخضع للصّعق الكهربائيّ، والعقاقير، فتخـفّ حالتـي. لـن أتلامح فاقـدًا للوعـي مُثخنًـا بجراحي، لـن أحسّ بالرهبـة، وسـيكون عقـلي مُنتظمًا، سـأتغلّب على هذا الكـسر والانفصال والسياط.

أخـبرتُ "هالة" عن فشـلي الخفـي، خلف البريسـتيج، إبّـان هذياني الفسفوري، المُؤتلف، لذلك كان ردّها حادًّا:

"ما تُريده؟"

فأجبتها مُتشوّقًا:

"أن أعرف موقعي من كلّ هذا"

أشرق وجهها عن إبتسامة وانبرت تقول:

"يبـدو أنّك لن تكون قـادرًا على فعلها، ألا تعلم أنّ كلّ الّذين فارقونا قد عرفوا بقاعهم عقبى رحيلهم"

وتلو هُنيهة أردفت محشّوة بالسكينة:

"أحسبُ أنّك تخزن في بواطنكَ أفكارًا وقصصًا اجتماعيّة ليست سيّئة، يُمكنها أن تكون رواية قاتمة"

"أتعتقدين أنّه يُمكنني كتابة رواية عظيمة؟"

فقالتُ ضاحكة مُدارية خرقها وارتيابها:

"فلسفتكَ داخليّة وسوداء، ذلك أنّ الكتابة تُولد من العُزلة"

"أتحاشى الاختلاط بالنّاس"

قالت بنبرة مُكهربة مشكوك فيها:

"ما الذي يمنعكَ من الاختلاط بالعالم الخارجي؟"

ويحدث أن تمرّ بي لحظات ثِقال ذبَّاحة، كهاته، ويغدو كلّ شيء غائمًا في عينيّ، فأتهجّى وأسعل بوحشيّة.

أستطرد قائلًا تلكمني الأمواج المُشتعلة:

"عاش مُعظم الروائيين في حالة كآبة وهوس لا يُحتمل"

قالت باقتضاب كطلقة نارية:

"أتتشوّف بحياة مُظلمة؟"

أجبتُ بنبرة قاتمة أبدًا:

"ألا ترين أنّنا نشتغل في ثكنة إرهابيّة وعتمة قاسية؟ هذا في حدّ ذاته قتل بطيء يجتذب الموت"

عبسنا، لذلك اتّخذت حُكمي بالإشارة إلى ضفّة السّماء المُلبّدة بالغُيوم غير المُؤذية. في هذا البنك وجلّاديه وكرنافالاته، نبيع أنفسنا، ولا نشتريها، حتّى بأبخس الأثمان. الرأسماليّة ترأسنا، حتّى أخمص قدمينا،

دون أن ترأف بنا. هو هذا بالتحديد مَأتى فقداننا لذواتنا. نُناوشُ الأنظمة السفّاحة، المنحازة للأثرياء، وقلّة الحِيلة، والنِّضال اللامُجدي. نقلتُ لها أنّني أكتب لتسوير الرئيس والبارون وكسر مقصّاتهم وكلاشنكوفاتهم وتفجير ثكناتهم. للتلصّص على حيواتهم المُعلّبة الّتي يخشون سبرها. لأُحلّق بمنأى عن وُجودي المُتردّد. لتقليل حُزني. لتبديل المُحادثات الّتي حدثت بيننا وجعلها لصالحي. لأُجرّب حسّ الرئيس وهو يُحرّكنا بشرائط من أوراق نقديّة. نظرتُ في حالة يُرثى لها. كنتُ في أردأ حالاتي. أكتم صَيْحاتي وفرقعاتي. لاسيّما بعد أن تذكّرتُ سوأتي وكلّ الصّراعات القاصمة للظهر.

حواجبها معقودة في حالة من العدائيّة المُستترة:

"هل تختار أن تكتب بالطغيان؟ أأصبحتَ مثلهم؟"

شعرت بنوبة من العربدة المُضحكة كسمكة قرش تحملها زوبعة:

"أ تربطين الكتابة بالطغيان؟"

"لا تُموّل سُؤالي وفق مشتهياتكَ، لديّ إكرامًا للكتابة وأحترم الرّوائيين، لكن نظرتكَ إلى الكتابة كجسر إلى الطغيان، أثارتني فعلاً"

قُلتُ مع التّعجّب العميق قبل أن يركض بي الصّمت:

"إنّ تعالى يكتب مصيرنا كما يكتب الرّوائيين أقدار أبطالهم"

لم أُجادلها لوقتٍ كافٍ، ذلك أنّها ببساطة لم تكن قانعة عمّا تُريد أن تُميّزه،

لكنّهـا ناهَضَت بأن أُقـرّ لها بما يجول بخلدي، ما الّذي يكبس أعصابي؟ ما الّذي يُوسّخُ صفو مزاجي؟ لكنّها لم تكن لتتعقّل تدفّقي فعلًا.

قالت:

"دعنا من المواهب، ما الّذي كُنتَ تصنعه بمكتب سي "سلمان" صباح أمس؟"

"حدّثته، دون جدوى، عن وسائل تبييض الأموال"

هَبَاءً انفجرت ضاحكة حادّة مثل شبح مهتاج:

النّار مشبوبة فيها." أأنتَ جاد؟"

"ما يُضحككِ؟"

ردّت بقرف." إنّه الراعي الرسمي لغسيل الأموال"

خمّنـتُ. أدركـتُ ذلـك عـلى الفـور. لـديّ حدسٌ غامـض لِمَا يُحاول الأشرار تَضْلِيله دائمًا حتّى أنّه يقوم بتحويل القسـائم النّقديّة إلى حسابات الأشـخاص البُسـطاء الّذين سـيُقدمون طلبًـا لتَحْقِيق الفيـزا. وهو يعلم ضمنـاً أنّ لا حُظـوظ لهم لنيلها، لكنّه لا يَنِي عـن الإتّجار بأحلامهم بأخذ ألفي دينار عن كلّ واحد منهم.

لا تقوم الأُمم ولا تُبنى الحضارات
إلّا على أكتاف المرأة
جُبران

(3)

الألم أبديّـة، عـلى غرار كل ما عداه. بعـد أن أحجمت عن المُزايدة على عُلبـة دواء ما بعد الأربعين، عاودني الألم. أبدًا لا ينخلعُ عنّي. لكنّه أخفّ وطأة من السّـابق. في غُداة غد، لم أكن أعرف ماذا أرتدي. تسربلتُ بلون الشـعور الّذي يغمرني، ممّا يعني الأسـود. اصطفيتُ قميصًـا بلون الزُبدة الرقيقـة. كأنّنـي رَائِح إلى مَيْتم وليس إلى أحد البنـوك الكُبرى. في طريقي ضربـتُ موعدًا لدى طبيـب الكِلى عقبَ الظهيرة. إلى مقـرّ تربّصي أصِلُ. كان قلبـي ظلامًـا دامسًـا. ما لاحظته، أنّه مـا أن تطأ قدماي بـاب البنك، حتّى أُفارق حياتي ووقتي وكرامتي، على الجانب الآخر. إنّ أجمل الأحلام طهـارة، تصير في هذا البنـك، غير طاهرة، لا بل أدنس مـا يُمكن تحقيقه. وأعتقد أنّني، لولا النّكات مع العُملاء، لأُصبتُ بإنهيار عصبي.

ويتعلّـق القسـم الثالـث مـن المسـؤوليّة الاجتماعيّـة بالمـرأة والتنميـة المستدامة. دعوة لمُعالجة بيئة العمل المُنحازة للذكور.

ينحسر حُدوث تشغيل النّساء عن الرجال بالمناصب العُليا، على الرغم من حِيازتهنّ للبراعات الواجبة. ذلك أنّ مالكي الشركة يحدسون أنّ للنّساء مُرونة للتخلّي عن تعيينهنّ بتعلّة العوائق الأُسريّة. في هذا البنك غير القادر على استيعاب أخلاقيّات الفرد، تُداس حُقوق المرأة بأقبح استرقاق. يعملن لساعاتٍ طويلة مُقارنة بالرجال. لقد أصبحت عادة وواجب وليس فضيلة، دونما تقدير. ما تنبّهتُ إليه أنّ كِبار المسؤولين يُحاولون طمأنة المُوظّفات بقناعةٍ تامّة أنهنّ لا شيء وتحميلهنّ مَحْصَلَة كل المشاكل، ذلك أنّ المرأة تُعدّ الحلقة الأضعف في البنك. إذا زلّ مسؤول كبير فإنّ المرأة تدفع مغبّة الخطأ. تشعرُ المرأة بأنّها أقلّ شأنًا وهامشًا وتلج في دوّامة من جلد الذات تليها أمراض نفسيّة مثل الاكتئاب. هل يعُقل أن تشعر المرأة بأنها غير كفؤة بالرغم من السمات التي تمتلكها لا لشيء سوى أنّها خُلقت كامرأة؟ يتمّ جلبهنّ متى تكاثف ثقل العمل. إنّهنُ أرخص قيمة حتّى من أصيص الورد البلاستيكي في عرين الرئيس. ظننّ أنّهنّ قد تحرّرن من استرقاق ربّ المنزل فوجدن أنفسهنّ وجهًا لوجه مع استغلال ربّ العمل. في السَنوات الأخيرة، انتهت الشركات الأوروبيّة بشكلٍ خاصّ إلى نَجَابَة تحديّات التنوّع. لقد انخرطوا في سياسات تكافؤ الفُرص بين الجنسين ومُنَافَحَة التمييز العُنصري، حيثُ أنّه أرومة للابتكار والإبداع وتحسين سُمعة الشركة عامّة. من رأسي تنفجر عدّة أسئلة عن

تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة داخل مجلس إدارة البنك وكذلك بين توزيع المقاعد؟ ما هي دوافع البنك لتوسيع هذا النّشاط؟ أَبانَت حصيلة الاستبيان الّذي أجريته أنّ ستّة وسبعون فاصلة وخمسون بالمائة الموظفين مُقابل ثلاثة وعشرون فاصلة خمسون بالمائة يُؤمنون بصَرِيمة أنّ للتمييز ضد المرأة حُضور في مكان العمل. أَلْهَبَت تَحْصِيلات شتّى تأثير التعدّديّة بين الجنسين على التّصاعد الاقتصادي. تُعدُّ المسؤولية الاجتماعيّة للشركات آلة مُوَاءمَة لتدَلِيل التَمَاثُل بين الجنسين في مكان العمل، مع تقديرها إلى مَيْمَنَة التنوّع كأحد ركائزها الأساسية. ثمّة علاقة قوية بين التفاوت بين الجنسين وازدهار الأداء المالي للشركة. غالبية الشركات التي تحتذي سياسات إدارة التراوح لديها تَكَهُّنات رفيعة فيما يتعلّق بإنتاجيّة مُوظّفيها.

قاطعت "ميرا" هواجسي الضيّقة والمُهترئة:

"حصل الرئيس على ترقية وسيُغادرنا"

هززتُ رأسي وكان تفكيري يتضاءل:

"أحقًّا؟"

"سيرحل بعد ثلاثة أيّام ويأتي غيره، عليكَ أن تتحدّث معه بما أنّه مؤطّرك المهني"

غمرني الحُبور. هذا الرئيس الوحشي يُغرّبُ عنّا إثر أيّام قلّة. ما أجمل

الأخبار السارّة، ويا لوقعها الملسوع والمُثير على قلبي. أثقل الانتظار كاهلي. إنّ وقتي مثل ساعة رملٍ مُتوسّطة، ينفد رملها حبّة حبّة. وتدقّ طُبول وأجراس الموت، أقصدُ تصدح لتسلخ عنّي النّور قبل الموت. الظلام كمّ أخافه، بضربات الصقيع الصّاعقة يجعلني أتقرقف وأتعذّب دون أن أدرك الموت. أنشغل بالتفكير في أمور أُخرى برغم كل الظروف. يُصبح فراق مساعيك الساذجة أنبل عمل تُقدم عليه. دخلتُ إلى مكتب الرئيس مُتصنّعًا الاستياء والكآبة على رحيله المُفاجئ.

قُلتُ بعد أن أخذتُ نفسًا يستنزفني من عطره الأزارو:

"عن أي شيء جئتَ تسأل اليوم؟"

"النّساء"

وأطلق ضحكة السحليّة في حين كان يُنشد أُغنية." النّساء، الله يخلّي النّساء"

قلت جاهلاً بكل ما خرج منه:

"تُمثّل المرأة رصيدًا هامًّا في المُؤسّسة"

غنّى ترنيمة حزينة ومُملّة، مَلْحُودة في الأعماق:

"ما الّذي تُريد معرفته بوجه الأخصّ؟"

"ما سبب غِياب المرأة عن عُضويّة مجلس الإدارة؟"

"أنتَ مخطأ إنّهن كالجراد في كلّ مكان"

"كلّا، أنا لستُ مخطئًا"

"أ لا يُعدُّ هذا تميّزًا عُنصريًّا؟"

"نحن نُولي اهتمامًا بالنّساء"

"كيف؟"

"نُوظّفهنّ؟"

"بوضعهّنّ في مقاعد أقلّ من الرجال"

"كلا"

"يتعيّن تحديد الأهداف من أجل تعزيز المُساواة المهنيّة بين المُوظّفين"

"عليها أن تتكيّف مع ما هو مُتاح"

"المرأة ليست ملكيّة لأيّة مُؤسّسة"

"كلّ من وقّع عقدًا معنا يُعدّ ملكًا لنا ونحن من نُقرّر عنه مصيره"

"هذه الأنظمة مُحبطة، وتُولّد العُبوديّة، والاستسلام، وتقتل الإبداع"

"هُنا لا نُبدع، بل نُدخل المال فقط، متى ستعرف هذا يا فتى؟"

"حتّى الدين كرّم المرأة ونحن بأنظمتنا نجعلها سلعة رخيصة"

"افهمها كما تفهمها"

"أسعى جاهداً لإدراك قيمة المرأة العاملة كإنسان"

"تكيّف مع هذه الحقيقة"

"تدفع الرأسمالية المجتمع نحو تجسيد الطبقات الحاقدة"

تعكسُ هذه الاعترافات أنّ البنك ليس مُلتزمًا بالمُساواة المهنيّة والتنوّع بين الجنسين. الرأسماليّة حرّرت المرأة دعوة لاستغلالها بموجب امتداد

ساعات العمل والأجور المنخفضة، وبالتّالي تفكّك الأسرة وخرابها، وليس من أجل الإنسانية وتحقيق السلام، بحسب نداءها. مع انشغال النّساء بالعمل، تتولّى المربيّات واجب صون الأطفال، ممّا يعني تصنيع المزيد من الأفراد الّذين لا يعرفون المبادئ الأساسيّة. تدفع الرأسماليّة المرأة لتزنى مع ربّ العمل من أجل أن يرفع لها من أجرها أو ترقية يُنيلها إيّاها، وبالتالي إنهيار شخصها. من بين مقترحاتي كسر قوالب التعيين النّمطيّة من خلال استقطاب المواهب النسائيّة والسعي لتمكين صورتها داخل البنك. توطيد النّساء قبل وبعد إجازة الأمومة بإيْجاز ساعات العمل ومنح خيار العمل عن بُعد بوجه أخصّ للنّساء الحوامل. إنّي بحرص لأنْ أكسر قواعد التعيين المظلمة للمرأة، إنّي طامع لكشف بقعة الضوء المُتراقصة في أهليّتها، إنّي بطلب لإبطال صلبها إلى الفراش ومصّها، إنّي بتأكيد لإنشاء برنامج سلمي يضمن الاستدامة حتّى للأجيال اللاحقة. لن نُزايد الرُتب بازدياد مرّات الفراش، بل بالمُؤهّلات.

قال ويطنّ المَزَالِيج الصدئة:

"ما السؤال الآخر الّذي تُريد طرحه؟"

يُحسب مُؤشّر المُساواة المهنيّة بين الجنسين على أساس أربعة أو خمسة مُؤشّرات حسبَ عدد العاملين في الشركة. يهدفُ إلى قِياس فجوة الأُجور بين النّساء والرجال، الاختلاف في توزيع الزيادات[1] التكافؤ بين

أعلى عشرة أجور، رفع رواتب المُوظفّات عند عودتهن من إجازة الولادة، والاختلاف في توزيع الترقيات.

يقصف النّقاش بيننا:

"لا أستطيع مُعاضدتكَ بهذا الأمر المُعقّد، إنّي راحل"

أومأتُ برأسي مُفتعلًا الأسيّة وقلبي يُغرّدُ فرحًا:

"تناقلوا نبأ رحيلك"

ترامقنـا في لعنة. يعرفُ من أعماقه المسـحورة أنّهم يسْـتَنْظِرون رحيله، ووجوده عُبوديّة وعذابًا لهم. ليس له أن ينكرُ هذه الحقيقة المُمزّقة والمخفيّة مثل الأتلانتيد.

"سأتحدّث معكَ بصداحة"

"تفضّل أيّها الرئيس"

"أنتَ إنسان مُهذّب ولطيف"

"يعَيْشَكْ"

"صديق العمل عدو خفيّ فاحذره"

ليس ثمّة صداقة بمقرّ العمل. كلّهم أعداء، لا غير. ولا تأخذ المعلومة الجاهـزة مأخذ الصّدق، فعادة ما يقع تغليفها بنية الخديعة. لا تكن بُطوليًّا وتشتغل مكان زميلك، قُم بعملك وعُد إلى بيتك. لا تتحدّث عن مشاكل البيت في العمل، ولا حتّى عن مشاكل العمل بالبيت. لا تظلم وإن كُنتَ

مُقتدرًا، كلّ شيء زائل، ومن ظلمته سينال حقّه منك طال الزمن أو قصُر. يقول المثل الصقلّي من الأحسن أن يكون لديك كلب صديق خير من صديق كلب. ترامت "هالة" إلى ذهني. تسبح الهواجس والشكوك، لذلك قمت بدرأها من رأسي. إنّها ليست على شاكلتهم. فيها شيء من الحُب والطيبة والإنسانيّة. فيها الحنان والبهجة والخيْر. إنّها فراشة تفتّحت بقلبي.

قال مُودّعًا:

"سعدتُ بتواجدكَ معنا أيّها المُقلق الصّغير"

"لي الشرف"

"أيُمكنني التغيّب ثلاثة أيام لغايات شخصيّة؟"

"لكَ ذلك، سأوصي عنكَ "ميرا"، لا تتعامل مع الرئيس القادم"

"حظًّا مُوفّقًا"

مضيتُ إلى الجناح المصرفي.

قالت "هالة" مُهتاجة لمعرفة ذريعة غيابي:

"أين كُنتَ؟"

"بمكتب الرئيس"

"لأيّ شيء؟ أُريدُ أن أعرف"

"حدّثته عن برنامج المُساواة بين الجنسين في مكان العمل"

تذرُّ "مرام" جُنونها:

" أصل التمييز العُنصري في هذا البنك"

"كيف؟"

تزداد ظلمتها انتفاخًا بالصرخات الكاوية:

"لقد درست خمس سنوات في الجامعة لألتحق بالجناح المصرفي، وفي المقابل النّاطقون الكِبار هم من الرجال الّذين أدنى مني في التعليم"

فزّت من قُمقمها رعدة قائِظة، وقبل أن تنصرف، نظرت إلى صُندوق نُقود "هالة" وقالت ترمي أشواكها:

وحدجتني بنظرة ماكرة وشرّيرة." عندما تجدين نقصًا بحسابكِ ستدفعين الثمن بنفسكِ"

يا للساقطة المجنونة. لأيّ شريعة إرهابيّة تنتمي؟ رشق الاتهامات يملأها بالراحة. انطلقت منّي ما يُشبه الرجفة. أنفجر من الداخل مثل رشّاش أهوج. كنتُ لا أُفرّج عن ذراعي إلّا وأنفخ اللهب من راحتي. أتحيّن اللحظة لأحشره في حلقها حدّ الموت. ليكفّ التَبْشِيع عن التَدْمِير. ضَيَاعًا أردت أن أدافع عن نفسي المكدودة النّازفة بأنّني لستُ لصًا. وكان الصمتُ أبدًا فضيلتي كما من قبل، لكنّ هذه المرّة كان خطئي الأناني، فيمتلئ قلبي غُبنًا. كان هُنالك نُقطة كراهيّة تتّسع. خيْط من الحقد ينسحب منّي.

أردت أن أصبح أستاذاً جامعياً ، ومسؤولاً مصرفياً رفيعاً، وكاتباً، ثمّ

قلّلتُ من أحلامي وتخليّتُ عن خاطر أن أكون أستاذًا واكتفيتُ بحُلم المسؤول والكاتب، بعد حادثة إبتزاز-دمّرت لي حياتي-وقعتُ فيها من مافيا ترأس الكليّة. ولأنّني لا أملكُ آلاف الدولارات وليس لي علاقات في عالم النّشر فقد تخلّيت مع مُرور الوقت عن خاطر أن أكون كاتبًا. ولأنّني لا أرتضي أن أملك غيري تخليّتُ عن خاطر بأن أكون مسؤولًا.

قالت "هالة" تُعرّي هواجسي." ماذا تُريد أن تصير بعد خسائرك؟" هذا البنك يُدمّر قناعاتي." لا شيء، أُريد أن أكون إنسانًا يُساعد النّاس" في بنك كهذا، كمّ تمرّ بك موجات التّيه والتّخبّط واليأس العميق. وكلّ وتر من أوتارك تيتوي ويتقصّف ومُستنزف إلى حدّ ليسَ بعده استنزاف. فتنطرِح فوق أحد الكراسي وتسبل جفونك. تغوص في غيبوبة مديدة ومقيتة. عندها، ستدركُ أنّ أنظمته الّتي لا تعرف الشفقة قد استنفدتك بأسركَ ومخالبها المعقوفة قد أبادت منك عناصر الحياة، وبصوت مضطرب تُطلق لهثًا دون أن يُسمع لهُ دويّ. لن تُحسن صنيعا في البنك أبداً، أبداً. بل ستتجاوزك الأشياء شاهرة لسانها. إن حدث وأبليت حسنًا فلن ترتئي مقلتيك الفلاح مُطلقًا. لن تَصمّم على المقاومة، بل ستتمظهر على هذا الشكل، ستمتثل على شفير انهيار نفسيّ شديد وحادّ ولن يُكتب لك القفز أو حتّى الاتّكاء.

أُنيط لعهدتي شغل، ألا وهو رصّ الملفّات في الصناديق المغبّرة وفق

الأرقـام. أعـترف أنّني أسـتحقّ مكاني الّـذي لا يعني شـيئًا. إذا كنتُ قد دافعـت عـن نفسي لأثبـت بالدَلالَـة أنّنـي أثقـل كفـاءة منهم-حتّى من الرّئيس-لمـا كنـتُ لأقع في موطئ سـخيف، حتّى أقلّ قيمـة من أصيص الورد عند مدخل البنك. لقد كنت أسعى، على أن أكتم أعصابي من أجل نيـل أدنـى معلومة، والمضي قدمًا في بحثي، وأسـعى عـلى ألّا أنهار كورقة خريفيّـة هشّـة، بل أشرب لترًا من المـاء. عليّ أن أُكمـل تربّصي، بقوّة غير معتـادة، وبأضرار أقلّ من قليلة، وبأيّة حال. حتّى عملي الطفيف والمُغفّل لم يسـلم مـن شرّهـم وجرّدوني منـه. جُرّمـتُ بضياع ملف عميـل. وكلّ مـا فيّ لا يَنِـي عـن التدليل بـأنّ هذا الملـف لم يأتِ لنطاق بصري. تلاشـى الملـفّ ليُثيروا البلبلة عنّي، حتّى أفقد الثقة بنفسي، وحتّى تُقبّح صُورتي ما أمكن. طلبني "إدريس" لنسـخ أوراقه السّخيفة مُجدّدًا، فانزلقتُ مُهرولًا إلى مكتـب أخصّائـي أمراض الكِلى. مـا كان الطّبيب موجـود في عيادته. انزويـتُ إلى الكنابيـه مُتألّمًا وبي بُغية إلى التبوّل دون أن تكون مثانتي مُمتلئة. مازجني صوت يحثّني على اللوذ بالهرب ورُؤية طبيب آخر. ما عشته سابقًا يُعـاودني اليوم. الماضي لا يَنِي عن تكرار نفسـه. يُعـاد الماضي متى لا تفهم الدرس أو الإشـارات، لكنّه ما فتئ يزورني بيْد أنّني قد حفظت الدروس كلّها عن ظهر قلب. جاءت سـيدتان تحمـلان عُلبة حلوى وكان حُضور الطّبيـب على إثرهما. مـا كان الطّبيب ليأتي بوميض الـبرق دون قدومهما.

تجاهلني تمامًا واستقبلهما قبلي. على الرغم من أنّني في ألم. ما كانتا السيدتان مريضتين، بل كانتا سيدتين زائرتين جاءتا لقضاء بعض الوقت في عيادته. لا فـرق بينـي وبين الكرسي أو حتّـى أصيص الورد البلاسـتيكي. ما كان يتعتّـم أن أذهـب إلى طبيب بعد كلّ الأذى الّذي لحقنـي منهم. ترامقنا أنا والسـكرتير في اسـتياء. ما فتئت تُرسـل نظرات تُخبرني من خلالها أن أثور على هذا المشهد التنكّري الحزين.

وتمرّدتُ.

وخـلال دقائـق أخـذني إلى الداخـل وقـح الحـركات، وفمـه مـليء بالمُرطّبات.

لهجته المُتهكّمة والشرسة تقتحمني:

"ما سبب مجيئكَ؟"

حكيتُ له من فوري وبعُجالة عن كلّ الآلام الّتي خبرتها في وقتٍ ما، إلى الآن. وبوجه أخصّ عن العقاقير الخاطئة.

:قال بعصبيّة

"أأنتَ مُتزوّج"

"كلا"

"هل تُكثر من العلاقات الجنسيّة؟"

رغبتـي تُجاه الجنس قـد انطفأت، ومكثت على طهـارتي وعُذريّتي." لم أفعل شيئًا بعد في حياتي"

وما أخفيته عنه، كان، أنّني ملوّث بالوسواس القهري منذ أن أدركتُ سنّ السادسة. ما في مستطاعي المرور بأشياء بحجمها بتسهيل. وكلّ ما خبرته، كان، يقتصر على القبلات المحمومة، لا غير، ولأربع مرّات، فحسب.

كان الطبيب يخال نفسه "فرويد" زمانه لتوثيق الأوجاع الجسديّة بالقضايا الجنسيّة. ومع ذلك أ كان على بيّنة من أنّ "فرويد" لم يخض هو الآخر -قبل زواجه- علاقة جنسيّة واحدة. وبهذا الشكل يمضي عقله إلى خلط الحابل بالنابل. كان أيضًا مُرتبطًا جدًا بوالدته. اللافت أنّ هذا هذا الطّبيب لا يفرق شيئًا عن عقده النّفسيّة مع "فرويد". نُقطة الإختلاف بينهما أنّ السّالف ذكره كان يصبو إلى البحث عن أسباب العلّة وكان الطبيب يبحث عن طرق لزيادة متعته. كان هذا جليًّا من تصرّفه مع المرضى. ينظرهم على شاكلة ورقة نقديّة ضاحكة من فئة الستين دينارًا. يُذكّرني هذا بطبيب نفسي يتجاهل تمامًا اتّصالات مرضاه سواء كانوا بحاجة إلى مشورة طبيّة أو إذا دخلوا في هستيريا الآثار الجانبيّة للأدوية وينتهي بهم الأمر وجهًا لوجه أمام شبح "أريد أن أقتل نفسي"

خربش في عدّة أوراق من التخطيط والتحاليل وأمدّها بفظاظة. لم يكن لديه حتّى جهاز الموجات فوق الصوتية ليتكشف عنّي.

"دوّنتُ لكَ عنوان تخطيط الصّدى"

ورافقني للخارج كما الحَطَبَة مُخلّفًا فرقعة تكاد أن تنفجر. لم تدم زيارته خمس دقائق.

قالت أخصائيّة الأشعّة:

"النّتائج سليمة"

"وأصل الألم من أين؟"

"أحسبُ أنّها من عاقِبَة مُضادّات الاكتئاب ومُضادّات الذُهان"

"ألمي لا يُطاق"

"ماذا قال لكَ الطبيب؟"

:انفجرتُ مُكرهًا أتكلّم دون وعي عن الّذي حدث بيني وبينه

"كان معنيًّا بأكل الحلويات مع رفيقاته، لا أن يكشف عنّي"

اتّسعت حدقتاها مثل بُومة تطير في أعماق الدُجى:

"إنّه زوجي، أخبرني بكلّ شيء الآن"

وفي حركة غير عاديّة أُغمِيَ عليّ لوقتٍ طويل.

وعُـدتُ إلى الطّبيب وما كان ينبغي لي أن أعود. مُتضرّم الوجه لاقيته. يتنفّـس أحقـاد المدينة. عرفـت أنّ زوجته قد حَكتُ لـه كلّ شيء ونكثت بوعدهـا. افترضت أنّها قضت تلك الليلة ببيت أهلها. أمّا عنه فقد أمضى الليلة في الحانة يثمل حتّى بُزوغ الفجر ولا يَنِي عن لعني.

قال يضبطُ الغضب بنفسه:

"كل التحاليل سليمة، لديكَ بعض الرمال فقط"

"وتهتّكات أعصاب البروستاتا؟"

بدا مُهتاجًا." حجمها سليم"

وأخفى جهله بالأمر

"صرف لي أدوية شاسعة"

أعطاني مُتذاكيًّا ابتسامة التهديد." ستجعلكَ هذه الأدوية تشعر بتحسّن"

وعندما تناولتها، أصبحتُ أنتفض وتمدّدتُ على سريري شاردًا بلا حراك. كمن أُصيب بطلقة ناريّة في القلب. مشحونًا بالصّقيع. أشهق بلا صوت. أسمع صوت المطر والريح. زخّات المطر تقرع قدري. الألم يُقطّعني إلى أشلاء. يُداخلني شُعور أنّني أنتقل إلى العالم الآخر. يُعانقني ضباب بما يُشبه الموت. عرفتُ أنّه قد انتقم منّي وسعى لسحقي بسُهولة عن طريق هذه العقاقير. سأُفارق الحياة دون أن أنال الماجستير. دون أن ترى رواياتي النُور وأصير كاتبًا. لم أُحقّق شيئًا. جاءني الموت مثل رعد، مثل عاصفة مجنونة. كنتُ في أعماق دواخلي، مُتأكّدًا من ذلك، حتّى أنّني أسلمتُ لإعصار القدر. لكنّني لم أُعانق الموت. الموت أجهضني. تيقّظت بعد ساعات. عرضت الأدوية على طبيب شاب قال لي إنّه لا يجوز للطّبيب أن يصف ثلاث مُضادّات حيويّة بجُرعات قويّة في الوقت نفسه، ناهيك عن دواء يُعالج السّرطان يمتدّ أخذه لأشهر. وبوجه أخصّ أثناء حالتي الصحيّة الهشّة.

قال يحدجني بنظراتٍ أسغةٍ كئيبة:

"اشتكي به، هذا قتل"

كان الألم يمسح عُيوني لوقتٍ طويل." بلدنا لا ينحاز للقانون، آملي سخيف"

"ما فعله بكَ جريمة يُعاقب عليها بالسّجن مدى الحياة"

"بلدنا يُمجدّ الجرائم"

ولأنّني كنتُ على نجابة من أنّه بغض النّظر عمّا سأفعله، فإنّ القانون لن يُنصفني كما في الماضي، فقد لجأتُ إلى القُوة الإلهيّة. وحدها مظالم الدنيا تُرفع إلى السّماء. لا عدل على الأرض كعدل السّماء. توضّأتُ ومضيتُ إلى المسجد وصليّت وكمّ دعيتُ أن يثَأَرَ لي القدير عوضًا عنّي. وانهرتُ باكيًّا من كلّ السُوء الّذي يحدثُ لي. أنا وحدي في مُواجهة بشاعة العالم. بدا العالم. مُتوحّشًا وقاتلًا. يقصف بشراسة.

أمشي بين الأزقّة رفقة "هالة" والخدر يُداهمني بالحقن ذاته. أشعر بذهني ينفصل عن جسدي، والكون يتراقص دون أن يُحدث جلبة. كُنتُ أُريد أن أحيطها علمًا بأنّي لستُ واعيًا بما سآتي عليه في الأيّام القليلة اللاحقة. مداركي العقليّة مُشوّشة. كبس عصبيّ لا أطيقه يفرم دماغي. رغبت أن أتكلّم بإطناب عمّا أنا عليه، وأشرح لها أنّني لا أُحاول النيْل من نفسي، وإنّما ما أروم إليه هو أن أُميطَ الهرج بتمامه. أن تموت أشباحي

النكراء، تلك الّتي تسُـوقني إلى الجُنون، وتُفضي نحو السُّـخام السرمدي. تعتقـدُ أنّني أقـوم بتزييف المرض النّفسي لجذب الانتبـاه وأنّ كل ما أقوله مُتطرّف وخيالات.

أقول غريق الصّوت في حين أنّ الضّباب السّامّ يُطوّقني." أنا لا أدّعي السقم"

تضغط على رأسي بكلتا يديها وتُجيب بالانتظام نفسه:

"حسبكَ اعتقادًا"

أنـا لا أتطلّع لجذب انتباه أيٌ شـخص. لكنّني أريـد بعضًا من الرعاية واللين الفهم.

قلتُ بعد هُنيهات كأنّني أسير على طريق الأبديّة:

"آهٍ لـو مـتّ، أما كان أجمل ما قد يحدث لي، فقد جُـنّ جُنون العالم وما عدتُ أئتلف معايشته"

"أنتَ أصغر من أن تموت، أمامكَ حياة كاملة لتعيشها"

"لم يبقَ شيء في هذا العالم يخصّني، كل شيء قد خَرِبَ"

"هذا صحيح، كمّ تغيَر العالم خلال هذا الوقت"

"من الأفضل تركه إذن"

"إنّـه وقـتٌ سيء ولا بُـدَّ أن تكـون لـكَ أيامًـا أجمل، عليـكَ أن تخرج وتلتقي بالناس، بوجه الأخصّ الآن ، أنتَ بحاجة لأنْ تُلاقيهم"

"مـا عـدتُ أتطرّق إلى ربـع ضربة نجاح حتّـى، لقد انتهيـت للتو من روايتي الخامسة، وكتّاب بلدنا يُعارضون على نشري"

"يـا لهم مـن حمقى، لا أقـرأ لهم أبـدًا، يكتبـون الهراء والدعـارة، لولا شبكاتهم ما وصلوا"

"لكم يحقد علينا الكثيرين لئِلَّا نصل"

"أحســبُ أنّ البدايـات غالبًا مـا تكون عويصة، لاسـيّما في بلدنا هذا، حيث الكره والأحقاد، إنّهم يزدادون سوءًا"

"ليس ثمّة شيء لهذا الجيل باستثناء اللاشيء"

"الحداثة تقتلنا شيئا فشيئا"

"أين السّبيل للتقدم؟"

"ليس كل الشباب مثلكَ"

"لكنّني غير محظوظ"

"سـيُجيبكَ الحظ يومًا، ثمّة أوقات لا يحـدث فيها أي شيء، وأوقات أخرى كل الأشـياء تبتسـم لنا، عليكَ أن تظلّ على ثقة من كون المسـتقبل كله أمامكَ"

"يأتي الحظ أبدًا بعد أن تفقد رغبتكَ في كل شيء"

"لي أن أدرك أنّ حياة اليوم ليست سهلة للشباب مثلنا"

"هذا الوقت عسير فعلًا، إنّه أردأ الأوقات حتّى"

"آمـل أن يُكافئـكَ القـدر بـما يليق مـع تعبـكَ وصـبركَ وحُبّكَ لخير الآخرين"

"أنا شخص منفتح على الجميع"

"تروقني الطّيبة الّتي فيك"

"أنا مثل السلام أينما حللت"

"الغضب فينا كلّنا"

"ثمّـة غضـب بداخـلي، ولكن هـذا الغضب تجـاه الظلـم والعنصريّة والقمع"

"ثمّة غضب على أي حال"

"صدّقينـي، فأنـا أظهر هـذا الجانب فقـط عندما أرى الظلـم ولكنّني أظهره بسلام، العالم مليء بالغضب، القليل من السلام لابُدّ أن ينتشر"

"بالتأكيد، الزهور والعطور لا يفعلون شيئًا"

"لكنّهم يُساعدون على الحياة، بل ويعطون معنى للحياة"

اسـتلقيت على الأرض، في جُمود تامّ، مُحدقٌ في السّـقف، وعبثًا سـألت تعـالى إن كُنت سـأجد ما أنا أبحث عنه بيُـد كل النّوائب الّتي صبّها عليّ، أجهـل مـا إذا كنتُ أرغـب حقًّا في ما أبحث عنه، لكن مـا أعرفه هو أنّني في بُغيـة إلى حُضـن يؤويني، فأرجو من تعـالى أن يُعانقني، ويوم البعث لا يُحاسبني، وإنّما يضمّني، يتلقّفني بين ذراعيه، ويُطبطب على كتفي، ويُمسّد

رأسي المُتساقطة شعره، بصنيع هذا الاضطراب العقلي، ذلك أنّني لستُ بضرورة إلى أن أُحاسب بمقدار ما أنا في بُغية لأنْ أُعانق، لأُبدّد السّواد المُعجّج بدواخلي. أقيمُ من مكاني، وضغط محشور بين فقرات ظهري المُهشّمة. ألتحم بالجدار. أُفرّج ذراعيّ كالمصلوب. أُغمض عينيّ. أسير برويّة، مُقتفيًّا أثر المجهول، إلى أن أرتطم بالتّلفاز، والترابيزة، والكنابيه، وما شابه. أُعاود الكَرّة حتّى يغمرني دوار، حدّ الذُهول، يُحطّم عقلي، بحقيقة الواقع. اندسستُ على الأرض مطروحًا. أغفو مُنهكًا. إنّي أُدرك جيّدًا معنى نقصُ النّوم منذ أن ضربني فيما سبق. كُنتُ أقبع لأيّام كُثرٌ دون أن يسبل لي جفن. عانيت من الأرق لأشهر وتلك الأشهر تتالت. لم يكن لي في أن أنام. وها أنذا الآن مُنغمس في سُباتٍ عميقٍ، مُتناسيًا الأرق، والعالم، والذكريات الذَمِيمة. قديمًا، متى كان يزورني الأرق، لا يتنبّه أحد إلى إعيائي ذاك، ولا يُكترث لأمري، بل وحدهم المُقرّبون منّي يلومون تلوّناتي، وباطلًا يُوبخونني ذلك أنّي لا أرزخ لأحاديثهم وما يخصّهم، لكنّني أكون، آنئذٍ، طافيًّا فوق سحابة تسحبني إلى أبعاد قصيّة. كنتُ واحدًا من أولئك الّذين تعرّوا من الحياة، وجُرّدوا من العالم، منذ أن تعشّوا خيبة أمل دسمة، وتجشّؤوا غازات الأمل، منذ أن احتضنوا وسادة الاستسلام، وتدثّروا بملاءة البهتان. كلّما تذكّرت حوادث الماضي، ينفلق قلبي إلى نصفين. لم يحدث أن داهمتني السعادة دون أن تليها فجيعة

مؤلمـة. على هذا الأسـاس فقدتُ فرحتي بكلّ الأشـياء. لم يحـدث أبدًا أن رغبت بشـيئ ونلته بدون قتالهم طويلًا وبأقذر الطرق. وغالبًا ما تُحاربني شخصيّات نافذة. وبشكلٍ ما، ما عدتُ أُريد أي شيئ، لعلها سكينة البال الّتي أودّها. أذكر مرّة أنّني كنتُ مريضًا أنزف بغزارة، أفقد الوزن بعجلة، أتناول ثلاثة عشر قرصًا كل يوم، وكانوا يحاولون ردعي من الوصول إلى أحد أحلامي البسـيطة، وبالفعل وصلتُ عقب مشقّة لا تُطاق، ووصلت دون أن أشعر بأي شيء، منذ ذلك الحين، ما عاد هُنالك ما أريده.

اليوم، وكما كان الوضع دائمًا،
ينقسم النّاس إلى مجموعتين: عبيد وأحرار
نيتشه

(4)

قَصَدتُ البنك إثر ذلك بأيّام. وقد كان شهر رمضان. دأبتُ أن أُجابه الموت وأولّي راجعًا مُعانقًا العالم الخارجي دون أن أخذ نفسًا عميقًا بعد ذلك. من سيُطبطب على كتفي؟ لا أحد. أنا بكُلّي ومرضي وضُعفي وحدي في وجه العالم المقيت. منذ حادثة قتل نفسي الأولى، من تلك السّنة المفجعة، تعطّلت أعوام حياتي. ما عُدتُ أشعر أنّني أتقدّم في العُمر. توقّفت في سنّ التّاسعة عشرة، والعشرين. أقفُ هناك حيثُ توقّف الوقت. يفصلني عنهم حزمة من السّاعات والأعوام.

برحيل الرئيس، لم تمضِ الأمور على خيرُ ما يكون. والمتاعب تتوالى. تولَى البارون "سلمان" المُلك حتّى يحلّ مكانه الرئيس الجديد الّذي يمرّ بظروف صحيّة طارئة. كانت الحياة، في البنك، قد أحجمت عن أن تكون حياة. كانوا بلا كرامة، وبعيدًا كل البُعد، عن أنفسهم، الّتي عاهدوها. لم نكن في البنك، بل في السّجن، حيثُ الظّلمة، والظلام، والقساوة. ما

عـاد لنـا دوافع، ما عاد لنا صفة أو وجـود. نحن في حالة صراع مع خصم نتعامل معه دون أن نراه، ينصهر بالشـموليّة فيكون الرأسماليّة. كان يتعيّن لواحدنا الرضى بما هو موجود، لكي لا يسـوء الوضع، ويخرج عن حدّه، أهناك ما هو أسـوأ من هشاشتنا وحاجتنا؟ لكل منا دوافعه الخاصة، إن لم تكن أكثر من احتياجاته.

كان البارون ينفجر كالرعد في وجوهنا دون أدنى تحفّظ. يُصبح أكثرة معانـاة وإيلامًا. يُمارس قُوّة الترهيب، لأنّ الخوف يجعل النّاس خاضعين. إنّ للسـلطة المُطلقة مغبّة التسـلّط. كان السـيّد وكُنّا البيـادق. يصرخ متى يشـاء ويُجاب بالصمت. كان الصّمتُ لحافهـم. أكان الصّمت؟ الأرجح أنّه الخُنـوع. الخُنوع ديمومـة وظيفتهم، وحياتهم وعُبوديّتهم وسـجنهم. عـادة مُثـيرة أن يجدوا أنفسـهم مدعـاة لوابل مـن الإذلال أحيانًـا، وحتّى المزيد من الإذلال، لعلّه السّـحق في أحيان أخرى، ملطّخين بعطر المهانة، وحتّـى أثمن العطـور لا يُخفي ما يُمارس ضدّهم. هذا الطاغية كان يتمادى كحوش وبشكلٍ قبيح. جرّدهم من كلّ شيء. كان من سابع المستحيلات أن يـرضى عنهم مهما فعلوا. هُناك قاعـدة تُوحّدهم ألا وهي ألا يتذمّروا، وألّا يُعارضـوا، وألّا يطلبـوا أدنـى طلب. صبّ جام غضبـه على "هالة" المسـكينة الّتي صارت تنقبض وتنبسط. مشـهد إذلالها أبدًا سيُطاردني. ما كان في مسـتطاعي أن أردّ الضربات السـمجة عنها، كانت مُجازفة خطيرة

أفقد فيها درجة الماجستير من أجل ورقة سخيفة سيحرمونني منها. خبّأت يديّ المُرتعشتين، خلفي، لكي لا أهبّ في صفعه. راح يصرخُ بها ويُعرّيها من صلابتها. رأيتها تنزف شلّالًا حتّى قاع قلبها.

كان كلامه لزجًا، دبقًا، لزِقًا." بأي حقّ تُجيبيني؟"

كانت عيناه منتفختين ومتورّمتين، تنزفان من الدمّ. بدأ يُلاعب حزام بنطاله، وحسبتُ أنّه سيخلعه ويسقطُ به على وجهها. لم تقترف "هالة" أي خطأ لجعلها تمرّ بهذا التهكّم. مثلها مثل معظمنا. يدسّ فينا سمّه. ماذا حدث له في طفولته ليُعاملنا بهذه الطريقة؟ الموظفون الطراطير من أوكارهم يُحدقون في مسرح التعذيب الخَسِيس، يحجبون إِحْتِشَامهم. يقفلون حواسهم الخمسة ويُحوّلونها في اتّجاه آخر. لم يكن لهم وجهة أو رأي، ولا كلمة. عُلّقت لوحة على قِفاهم: "للإهانة". كأنّي أبدًا عرفتُ ذلك، كرامتهم مسحوقة. يُهانون وينصرفون إلى العمل ناسين كلّ شيء. وبرغم التنقّلات المسموحة لهم، إلّا أنّهم كانوا سُجناء بما فيه الكفاية. كان لديهم إذن، بدائل المحاباة بين درجات العبوديّة. وأن يتصرّفوا بأوجم ما في الوجوم، وربّما، أن ينحشروا تحت الطّاولة، بأسفل ما يكون وهذا ما كان في مكانٍ ما يكنى البنك الرائد. وفي مستطاعي القول إنّني قد أحسنتُ صُنعًا في أن أقيم في عالم مفرغ من مشاعر الرحمة والإنسانيّة. مع تعاقب القهر، ولكي أتنفّس من غضبي، كنُتُ أتخيّل أنّ موظّفي البنك، يكسرون جُدران زنزانتهم بجماع أيديهم، ويتوسّلون من أجل الحرية.

بَسُرتُ بمعرفة أنّ الرئيس "نجيب" كان ينتوي أن يتّخذني بالبنك بمركز ثقيل يُكرّم دراستي. ارتأى البارون والحيْزبون أنّه ليس من المعقول أن أستحوذ على هذا المنصب بدَماثَة دون أن أَعْيَا كثيرًا لسنواتٍ طِوَال. إِنْضَوَى البارون تحت لواء البنك -بدون حجم تعليمي- وبفضل صِلات والده الّذي كان شيفور بورقيبة. الثابت أنّني -الشاب العشرينيّ المُثقّف والعَلاّمَة بأُصول العمل علميًّا- أُثيرُ فيه الخُصومة وحتّى العياء. استزادات تُعرّي كياستهم. بل يصلُ الواحد منهم إلى مَنْح نفسه في الفراش لاستبقاء مركزه ولحيازة ترقية. إنّهم لا يُميّزون بين الذكر والأنثى، وإنّما يعشقون الجمال. على هذا الأساس، فإنَ مُوظّفي البنك في غاية الأناقة والوسامة. إنّهم يصطفونهم ليس فقط لشهائدهم، ولكن أيضًا على وسامتهم وإيتيكات النُبلاء. لا نُطلق أحلامنا لتُحلّق إلّا وتُغتال بقُلوبهم المُقرّحة. متى يمتلك الإنسان الجاه والسّلطة، تطغى الحاجة لأنْ يمتلك كلّ مخلوقات الأرض وتطويعها وفقًا لشهواته.

انفجرت "ميرا" مُنهارة بعد أن أذلّها البارون الأكبر، هي الأُخرى. أقرّت لي بالحقيقة. إنّهم محض بيادق يعملون بالمُناولة منذ ثلاث سنوات. ينتمون إلى وكالة مُؤقّتة تُمارس الرق الحديث وتُسمّى أداكو. يحكمها أرباب البنك وتقوم بتجنيد الشباب الطموحين برواتب مُخفضة. من ستّمائة دينار، وقد تصلُ إلى ثمانمائة دينار إذا كنتَ حاصلاً على الماجستير

وعملتَ لُمدّة ثلاث سنوات فما فوق. تنتدبُ الوكالة طلاّبًا من جامعات النُّخبة ومن عائلات فقيرة ومُتوسّطة الدخل لِإسْتِرْقَاقهم ورميهم في عامهم الرابع. شعارها التخلّي عن الأحلام والقيم. أهدافها رفع أرباح المستثمرين باستغلال مُوظّفيها. كل تلك الشياكة والأصالة ليست إلّا زيفًا. إنّهم ليسوا بشرًا، وإنّما حيوانات مهضومة الحُقوق. لا يستمعون إلى همومهم اليوميّة. دخلهم بالكاد يُغطّي نفقاتهم. لا يُغلق البنك أبوابه أبدًا من السّاعة الثامنة صباحًا حتّى السّاعة الرابعة والنّصف مساءً. يُغادرون البنك السّاعة الخامسة والنّصف. إنّهم لا يأخذون فاصلًا كما كِبار الموظّفين الّذين ينتمون إلى البنك. إنّها تنوب البعض أماكنهم في العمل ليتناولوا الغداء. يعملون ساعات زائدة غير مدفوعة الأجر خشية الطرد. إنّ حذاء الرئيس يُقدّر بنصف راتبها. وجودنا يخفتُ تدريجيًّا إلى أن أصبحنا لا نُرى.

"عبيد القرون الوسطى يقبضون أكثر منّا"

"لماذا قبلتِ بما أنتِ عليه؟"

"ذلك أنّني بحاجة إلى العمل"

"لكِ أن تعثري على وظيفة أفضل منها"

"أبي لا يعمل وأمّي ربّة بيت، وحده دخلي الّذي يكفلنا"

"أتمنّى أن تجدي وظيفة أُخرى ببنك محترم"

"آملي بالتغيير منعدم"

"لا تقولي هذا"

"أشعرُ أنّني دُمية تُحرّك من أعلى، لا أملك قدري"

"كُلّنا دُمى"

"لكنّ خُيوطكَ أطول من خُيوطي"

"لا أعرف ما يتعيّن عليّ فعله لأجعل الحياة في هذا البنك مُحتملة"

"اكتب ما قُلته لكَ في مذكّرة الماجستير"

"عِديني أنّكِ ستبحثين عن وظيفة أخرى؟"

"والبرستيج لا تستطيع مُفارقته؟"

"دعِ البرستيج يذهب إلى الجحيم"

"النّاس يحترمونكّ على أساسه"

عهدت لي بترتيب الملفّات في صناديق حسب الأرقام. وأدبرت إلى مكتب "إدريس". جاء البارون "سلمان" بعد هُنيهاتٍ. ترامقنا في غموض أكثر ممّا ينبغي. وكان عليّ أن أتكهّن مرادفات نظراته المَحْرُورة. يجعلني تائقًا لسفك دمه. أبقيتُ عينيّ مفتوحتين. وما كنتُ لأدري أنّه كان ليُعاجلني بدفعه ولسعه المسوس. مُفرط في جنونه يقرعني بابتسامة ماكرة تحمل الضغينة. يراني لقمة سائغة. إلى من تُرفع الشكاية إذا كان الشخص نفسه يُقدّم به وإليه الشكاية؟ تلك المُبالاة لسداد الإساءة بمثيلتها قد ماتت بداخلي. فلكثرة ما عانيت، ولفرط ما تحمّلت، قدّرتُ،

خُطـوة بخُطوة، من فقداني لنصف وجودي، ورأيتني أدخلُ إلى عالم ليس فيـه ظلم البشر. من أوحى إليه بمُمارسـة هذا القمـع؟ يُفتّش عن إحداث المتاعـب معـي، حتّـى يتخلّص منّـي، ولا أنـال درجة الماجسـتير، فينفرد هو بالسـلطة. تحوّلـتُ متماوتًا إلى الجناح المصرفي أشـتمّ منـه رائحة القياء والسـكر. كم لازمني شُعور بأنّ الثقب الأسود سوف يسحبني. أغدو في مكانٍ آخر.

الرأسـماليّة أخفقت في تثبيت الإنسـانيّة. حقّقت التطوّر التكنولوجي عـلى حِسـاب الجانـب الإجتماعـي. أطـراف تعيـش في تـرف اجتماعـي بخنـق أطـراف أُخرى من أجـل الربح. هذا ما يُسـمونه صُعود التّقسـيم الطبقي. هُنالك حُفرة ضخمة أنشـأتها اللوبيّات لكي يسـقط الفقراء فيها ويسـتعبدونهم. نشـترك كلّنا في العالم نفسـه، لكنّ هُنالك طبقة من الغيوم الشـفّافة تفصلنا عن بعضنا البعـض. الفُقراء يلتقون بالفُقـراء والأغنياء ببعضهـم. فالأغنيـاء يجلبون الفقـراء إلى زوبعة الإنتاج بدون اسـتهلاك. شـيئًا فشـيئًا وجد العُمال أنفسـهم قد بيعـوا بالكامل. يتقاضـون رواتبهم حتّـى يتمكّنوا مـن العودة إلى العمل من الغد دون إحراز تقدّم في حياتهم. الراتب يُمغض كاللبان ويُزقّم منه قضمات صغيرة جدًّا طيلة شهر.

قلتُ لـ"إدريس" الّذي كان يقوم بتحويلاته الماليّة خاصّته:

كنتُ أظنّه سيُطيّب خاطري." ألي بالمجيء بُغية أن تُعطيني معلومات لأجل بحثي؟"

"أنا من أُناديك متى أُريد وليس برغبتكَ أنتَ"

انفجر الجميع بالضحك، بما في ذلك العملاء. إنّ هذا الموظّف اللقطة غدا يُثير الرثاء. يا للنّحس. شيء ما في نفسي يجعل الأشرار من حولي، شيء ما خسيس يجعل حظّي مع النّاس مُوحِش ومليء بالغرابة. كنتُ لا أحسُّ بشيء ولا أشعرُ بوجودي في أي شبر من البنك. كمّ لازمني شُعور بأنّ الثقب الأسود سوف يسحبني. كان صمت صرخاتي يقعر الحدّ الفاصل بيني وبين العوالم الرماديّة الأخرى. المواصلة تعني الانْدِثار. لقد استغرقني شيء من الوقت، لأعرف أنّه لا شيء يستحقّ مُحاولتي، لكنّي، برغم كلّ شيء، كنت في حاجة إلى المواصلة، وإلَا، فلن أنال تلك الدرجة العلميّة، الّتي سأُدرك سخافتها لاحقًا.

خمّنت في الأيّام اللاحقة، بالمضي إلى مسجد في إحدى المدن القصيّة خشية أن يُذيع الإمام-الّذي أخلاقه كالخنزير-ما كُنتُ سأقوله له، ذلك لأنّ الأئمّة بمدينتي يكثرون من الكلام ولا يحبسون سرًّا. سأرتمي على الأرض ملفوفًا في جُبّتي، أتمرّغ على السجّاد، أُريد أن أنسى حُبًّا لئيمًا قديمًا، وقد سئمتُ من كلّ المحن الّتي تُطاردني. كل الأشرار لاقيتهم ووحدهم الأخيار لا أُصادفهم. هُنالك من دسّ لعنات بحياتي فأزلها عنّي بأي ثمن، وإلّا فإنّي سأقتل نفسي لأكسر هذه التعاويذ العفريتيّة. وبقدر ما أعلمه، أنّ انتحار شخصًا لم يعد واعياً لا يُعتبر بمثابة قتل للنفس، أمّا عن ذهابي إلى

أحد العرّافين والدجّالين لن يزيد سوأتي إلّا سوءًا. كلّ ما كنتُ أُفكّر فيه، هو بثّ نبأ موتي، بالصُحف والنّشرات الإخبارّية، أثناء إحدى جلسات سحب رداءة حظّي بسقيفة العرّافين. وهل للإمام سبيل ليُخلّصني من كل الألم والجُنون اللذين أعيش فيهما؟ ورُبّما، إذا رأى فوضاي وضُعفي، فسيحتاج إلى سيّارة إسعاف، لتقلّني قسرًا، بعد حُقنة معضليّة، إلى إحدى المصحّات النّفسيّة الفظيعة. لكنّني انسحبتُ من المسجد قبل لحظات من وُقوع هاته الكارثة.

في ذلك الصّباح الدبق، وبعد أن كان مجيء الرئيس الجديد مُتأخّرًا أردفت حائرًا: "يقول برنارد شو أنّ المدير رجل يأتي مُتأخّرًا عندما تكون باكرًا ويأتي باكرًا عندما تكون مُتأخّرًا" فردّت "مرام" مثيلة بـ"بلودي ماري" المُتقزّزة "من هذا؟ أهو بائع مُعجّنات؟" وندّت عنها ضحكة بغيضة وشرّيرة وجهنّميّة. أجبتُ ببساطة "كان كاتبًا" ما عُدُت آخذ كلامها المسعور مأخذ الجدّ كما كلّ مرّة، وإنّما أخذه مأخذ الحماقة. غلبني النُعاس شبحًا مُتكاسلًا وكان خيالي ينسج لي تصوّرات مجهولة التحقيق عن كوني سأُصبحُ مديرًا طال الزمان أن قصُر وأنقض قواعد الرقّ والقرف. أنتزع الملاقط عن الكرافتات. هززتُ رأسي فوجدتُ أحد أقاربي في الصفّ الأمامي يحمل ملفوفًا من النُّقود. يرمقني وقد عَلت على ثغره ابتسامة. ضجيج الصرّافة يحفر في أعصابي.

قال يُمازحني كما كلّ مرّة:

"لماذا البنك في حالة من الفوضى"

وكان ردّ الحيْزبون "مرام" ساحقًا وسلطويًّا، لعلّه سخيفًا:

تُواصلُ مَمْسُوسة أكلًا لسُمعتي." بوجوده في الجناح المصرفي حتّى حساباتنا تعمّ فيها الفوضى"

يرتاع قريبي مُهمهمًا. يحدجني بنظرة مُريبة وبالتّالي لاذ بالصّمت. أحسستُ أنّ ملامحي طفقت تتغضّن. أحسستُ بنزعة لأنْ أختفي. رغبة لانسحابي وانسحاقي. لا حسّ ولا حركة. تَلَهُّف طاغٍ إلى ما لا نهاية لأنْ أقفز مُحلّقًا. ولفحني ألم يمتد يمتدّ. ألمٌ أقسى من كلّ الافتراءات الّتي وُجّهت لي في المواراة. ألمٌ لا خِتام لمرارته. ألمٌ ممطوط لكلّ مصائري وتوجّهاتي. ثمّة شيء حار ينسكب على رأسي. يربو تكوّمًا. ألتصق بالبرد. ألتصق به دون دراية. ومن ثمّ لم أجد من نفسي القوّة لأدافع عن نفسي. تلك اللامُبالاة ما أجملها. واللامُبالاة تعني موت الخوف والتفكير والشّماتة والسّعي لإرضاء من لا يُرضيهم شيء. سأدعُ الكُلّ يقول ما يقولونه وأجعلهم يؤُثمون على ما يظنّونه بي. فلا شيء عاد يعنيني. لكنّني تساءلت، لماذا نُعيبُ علاقتنا بحرصنا على تشويهها حتّى صدأها؟ لماذا لا يُقيّض لنا أن نُكرّس تعاملنا بمودّة وتقدير؟ هذا يُنافي طِباع طفلة العفريت الفظيعة. وقُصور رهيب في التفكير الّذي يلسعني.

لا يُحبّ الرئيس الجديد الاختلاط بالمُوظّفين. مكتبه لا يُفارقه. بالكاد

رأيته مُحترقًا في عتمته. أحدسُ أنّه يشعر بالخوف أثناء الاجتماعات. يتعامل بقدرٍ من التحاشي. عندما دلفت إلى وكره وجدته يفور من هاتف إلى آخر. مكث متغافلًا عن إيّاي. ينتابه شيء مثل الرعشة والخفقان. يفرُّ الشرّ من وجهه الأربعينيّ الفتيّ. عببتُ نشقة من الهواء الفوّاح. ما قدرتُ أن أتكشّف عن ماركة بارفانه. مدافع طيف الفُصام تنطلق في من تجاويف. أكبح أوتاري ونفسي وتلاحقه. لماذا أنا في صراع أبديّ معه؟ كنتُ عاجزًا عن الإدراك. وكان رأسي يرسم بالونات وفُقّاعات ملّونة تصلُ إلى السّقف وتنبثق. تدخل الأقزام مرصوفة وتتسامر ببلاهة وحنق. ترمي بنفسها على الرئيس، تعضّ عُنقه وربطته وحزامه و مَرْبَعه الرقيق. أحسُّ بقرف من مُتابعة جُنونهم.

قال بلُطف شديد مع كثير من التكلّف:

"عن أي شيء جئتَ تسأل؟"

يتمحور بحثي حول المسؤولية الاجتماعية للشركات. تضمّ فيه الشركات الاهتمامات الاجتماعيّة والبيئية والاقتصاديّة في أنشطتها في إطار مفهوم التنمية المستدامة وخلق عالم أفضل. يُعدّ البنك العمود الفقري لسياسات المناخ ذلك بفضل فاعِليّة خيارات التمويل وثقلها.

"بماذا أستطيع أن أخدمك؟"

"بمدّي بكلّ المعلومات في هذا الصدد"

"لماذا لم تقم بحثكَ قبل مجيئي؟"

أحسُّ بغُصة محتدمة، فقُلت:

"لأنّني لم أجد من يُزوّدني بها"

أجاب برفق، دعوة لتلطيف الجوّ:

"ماذا تُريد أن تعرف بوجه الأخصّ؟"

يختصّ القِطاع المصرفي في أعلى نُقطة بطبيعة علاقته المُهتزّة مع عُملائه. زايدت الأزمة المالية لعام ألفين وثمانية من أزمة الثقة. بإمكاننا كسر هذا القلق إلى حدّ كبير من خلال استجابتنا بإستراتيجية الشفافيّة والتواصل، لا سيّما عن طريق المسؤوليّة الاجتماعيّة للشركات. صقل ظروف العمل عُنصرًا أساسيًّا يتَترَّف فيها الموظّف بمَنْزلَة سليمة من الاستقلالية. توطيد القُرب بالموظفين واجب. إِئْتلاف المُوظّفين له سَطْوَة فوريّة على إيفاء الشركة، كتحسين الإنتاجيّة. سيكونون أيضًا أكثر ميلًا إلى ابتكار أفكار جديدة. إنّ المُوظّفين المُشاركين في حياة الشركة هم ناقلات حيويّة للتواصل و ارتقاء صورة علامتها التجارية. زيادة إلى اِنْهِفَات وتيرة التغيّب والإجازات المرضيّة. جوهر ازدهار المشاريع الكبرى هو حِفْظ الموظّف. وحده المال بدون تنمية مستدامة يبعث الخراب وتدمير الإنسان.

"إنّني أُريد أن أتبنّى هذا البرنامج بشفافيّة"

إنّ المرمى المبدئي من أطروحتي هو استبانة العالم الواقعي للمسؤولية الاجتماعية للشركات وليس ذلك الّذي تسعى بعض البنوك إلى إقناعنا به

من خلال الغسل الأخضر والغسيل الاجتماعي، وإيلاء انعكاس للتنمية المستدامة في القطاع المصرفي. كمّ خسرنا حتّى أدركنا أنّ الرأسماليّة لا تحرص على مصلحة المجتمع وتحقيق السّلام. ناهيك عن تدمير البيئة، وظلم أقليّة اجتماعية خاصّة، وقصور حسّ السكينة في مكان العمل، وغسيل الأموال، وإقصاء الفُقراء من المعاونات البنكيّة. اندلعت رغبّة منّي في إنشاء برنامج خاصّ يُشارك في توثيق الفئات الفاعلة في المجتمع الاقتصادي من أجل تحقيق سلام دائم للجيل الحالي واللاحق.

مُتشنّجًا ينظرني بهلع:

"سأقوم بالاتّصال بمدير الموارد البشريّة لمعرفة ما إذا كان يُمكنه مُساعدتكَ"

خرجتُ بخُطوات ملكتُ أن تكون رصينة.

في الأيّام القليلة اللاحقة جاءني عرضًا من شخصيّة نافذة لأشتغل بإحدى شركاته الكُبرى بمركز مُهمّ شريطة أن أدفع المال وأكون عبده المطيع. وهذا شرفٌ لي لا يناله إلّا أبناء النُبلاء، وأنا لستُ واحدًا منهم، لكنّي أتميّز بهم وأتفوّق عليهم. قالها لي دون مُواراة. هكذا، دُفعة واحدة. ولأنّه شخصيّة نافذة فإنّه يتكلّم بلا مُواربة. لا شيء يُقدّم بالمجّان. إنّه يصطفي موظفيه بجمالهم وكمالهم، بمكانتهم واتيكيتهم. لا يُوظّف أحدًا هَدْرًا، بل بمُقتضيات وبُنود طويلة وعريضة، كلّ هذه الأحكام والمعايير

يجدها في شخصي أنا. إنّه سيّد المقام ونحنُ مجرّد عبيد. العالم ملكهم ونحن بيادق نُسلِّيهم كيْلا يشعروا بالوحشة. حُوت يَاكل حوُت وقْلِيل الجَهد يموت(1). كان الضباب الأجّاج والُمقرف يعبث بأعصابي. أحسُّ أنّ عقلي سينفصل بتمامه عن جسدي فيغمرني الفُصام بجُنونه وسُخطه. تُلاحقني بُغية لأنْ أزدرد قُرص مضادّ للذُهان. يُدركني رَجَاء لحبّة زولان. يَخترقني تَوْق لأنْ تُوضع الأقطاب على معابدي وأصُعق بالكهرباء. أحسُّ بكلّ هذا حتّى أعود إلى نفسي ولأعرف بأي شيء أردّ عليه. لكنّ كلّ هذا لا يُوجد وبالتالي نزلتُ من سيّارته دون أوهى تفكير. لا حسّ ولا حركة. وأهذي أنّ ليس لي أحد. سلاسل ضخمة تشدّ رأسي وقنابل موقوتة تنفجر منه. دقّ الطُبول. وكلّ ما سمعته أنّ الأصوات تهزأ من نفسي. متى ستعرف هاته الأنظمة المفسودة أنّ لا شيء من أحلامي عاد يهمّني سوى أن أحصل على راتب لائق أعيش به، أُدخّر منه ما يكفي في حال اخترقني الفُصام بنصيب من الحيازة، ولتحرير رواياتي ونشرها. أُريدُ أن أصير كاتبًا عظيمًا. لقد دمّرتم لي أحلامي. كلّ ما خبّرتني به "هالة" كان صحيحًا. إنّهم يُتاجرون بأحلام الشّباب بأقذر الطرق. لا يعرفون الإنسانيّة، لم يسمعوا بالعاطفة والحُبّ. المال فقأ بصيرتهم وشفط ضمائرهم كقشّ الشرب. لا يُميّزون بين الذكر والأُنثى. وحده الجمال يُريدون مصّه

(1) مثل شعبي

حتّى نهايته. كلّ شيء بات يدور حول المال والأعمال والجنس بوضعيّاته. حسبتُ أنّ الأحلام كانت لتتحقّق بعصا سحريّة كما في القصص، كبرتُ لأعرف أنّها كانت لتتحقّق عن طريق الفراش وذبذباته. يا له من زمنٍ مفسود.

كان القمر الّذي يملأ السّماء يفرشُ أضواءه على الطُرقات. يدها النحيلة والشاحبة محشوّة في فُتحات معطفها، كالعادة. وكُلّما ضبطتُ توقيتي أجدها بعالمي. بقامتها أمامي. مُنصهرة بفُراقي. ومُلتحمة بأبديّتي. كَثِيرٌ بها أنا بشَارَة الزمن. فاجعيّ هذا الوَلَه الّذي أنا فيه. تعلّقتُ بها بكل ما تحمله الأرض من خيبات. من ذا الّذي قرع أجراس أرضي. خرَّ قلبي من قلبي. في دُنياها هوى. في الغرام مُتيّمُ. دُنياي فيها هوَتْ. مُستوطنة الفؤاد. آمالي كُبرى. كعظيم تسرّبي إليها. يذوي قلبي فأنتهي أنّني. سأحصد نفسي وأموتُ ولعًا فيها. وليشهد قلبي والعالم أنّها تستحقّ لُطف الكون برُمّته، الحُب الذي أوهمها ذوات المضخّات المُهترئة إيلائها إيّاه. يا أبديّتي المُتأوّهة لا تقولي للمقادير كلّا، قُولي: "آهٍ، أقبلي لطيف العشق المُتأوّه" إنّ في ذوباني العذب بها تلقيحًا لبراءتي وولادة لقلبي وانعتاقًا لجسدي. الحُب صُدفة العشق فيتوه الحُب عن العشق. كانت صُدفتي الحُلوة. الغوص في الموت ليس كالغوص في الحُب. الأوّل وفاة والثاني خلود ما بعد وفاة. لا يستقرّ الكون بتقلّباته وتزعزعه إلّا بحضور الشّخص المنشود والمُراد المكوث وإيّاه رُغم أنف العالم. الحُبّ يُذكّرني

بالأطفال، شفّاف ونقي. لهذا حُب العُقلاء لا يكتمل. يجبُ أن تُحب بقلب طفل وتُحافظ على ذلك الحُب بعقل الكبار. أسرّ لها سرًّا غائرًا: "إنّي على أوتار الخوف، على الرغم من ولعي اليقيني بكِ. على الرغم من إيماني المُؤكّد بكِ" مررتُ بعدم الأمان والغدر وجُل الموصوفات البشعة. معها أُحاول أن أعود إلى هدوئي الثابت. معها أحيا على أنغام الدَوَام. أصَوِّرها بنظراتٍ. أُردّدُ حُبُّها بزخّات المطر. أحتضنها بين أعماقي. أُقبّلُها في خيالاتي. أُميطُ عنها مواجع أعرف جيّدًا أنّها خَبَرْتها واجمة. أحببتُها كالمنفيّ الّذي طوعًا اصطفى أن يجعل حياته بانتظار حُريّة، بحيثُ لا تجيء إلّا بمجيء الشخص المنشود، وكانت شخصي المنشود. لن أقول أنّها زماني لأنّها بالكاد كل أوقاتي. أحببتُها على ما هو عليه فحسب، بالمساوئ قبل المحاسن. أحببتُ ظلامها قبل وميضها. وأختلف أنا عن أولئكَ الّذين مرّت بهم وكذبوا بشأن حُبّهم لها. أختلفُ كوني الرفيق الفعلي بينهم. الاختلاف هو استثناء المسار. لا أدري أي هوس يحكمني ويعبث بعاطفتي. أجهل ما بي.

أيقظتني "هالة" من غفوتي قائلة:

"ما بكَ شارد؟"

"لا شيء"

"أأنتَ واقعٌ في الحُب؟"

"كلّا، هذا سُخف"

"ألم تقع في الحُب الماضي؟"

"لا أُريد أن أتحدّث عن الماضي"

"أ تخافه؟"

"ما حدث في الماضي لن أحمله معي في حاضري"

أُقرّ إقرارًا سحيقًا أنّي بتُّ أتقصّي عن حُضورها مُنذُ أن وعيتُ بحقيقة تعلّقـي بهـا الّـذي لا مهربَ منـه. كيـف لي أن أتمّ عيْشي دونهـا؟ صارت مُوسـيقاي البَاهِـرة على قيْد أُغنيتها وسـكْران قلبي ونشـوان عقلي، بحقّ النَدَم أي شيء فعلته بي؟ أنا واحد أولئكَ الثابتين والشرفاء النادرين. الّذين إذا أحبّـوا أ إِسْـتَقاموا وإذا وعـدوا صَادَقوا. تصفعني بعثرة أحاسيسـها. يُغوينـي إِخْتِلاَفها حال مرأي. فيها إِشْـكَال الحياة. أنا رقيق دونها ومُهَيْمِن في حضرتها. سـأحارب من أجلها إلى الرمق الأخير. سوف أسْتَنْظرها إلى آخر نفسٍ من حياتي. سوف أسْتَنْظرها إلى أن يهيلوا التُراب على ضريحي. ما بيننا مسـألة لا بُدّ لها أن تحلّ. أُشـاهدها تلوح في الخراب، أهو سرابها؟ وحتمًا سـتختفي مثلما توارى الحُب عن طريقي قديمًا. شـظايا مُتناثرة منّي ترتقب حضورها الدائم. تأتيني نزوة. تدنو بخُطى ثابتة ورصينة. يتحجّر الوقت. تهبّ رياح السّـكينة لتنأى بعيدًا بهاته السُـحب. أرتعد. وأتأمّلها عن كثب كما يفعل العاقل والأهبل. أحسّ أنّ أدنى إهتمام يُقدّم لي يتحوّل فجأة إلى حُبّ حتّى وإن كان من قرد.

أيقظتني من غفوتي مرّة أخرى:

"ما بكَ شارد ثانية؟"

انتقل بي التفكير إلى البنك، فقلت:

"إنّها الأفعى "مرام""

"تجاهلها"

"لا أستطيع، إنّها تُثير حنقي"

"إنّها لا شيء صدّقني"

"بلى، إنّها الحقد برمّته"

"دعها تحترق في حقدها إذن"

"لا تَنِي عن انتساب تُهمة السّارق بي"

"لا تهتمّ بما يُقال، بَاطِلًا يُشوّه الأشرار الشرُفاء"[1]

" القدّ قدّ الفُولة والفعايل فعايل غُولة"[2]

"ما غاضتنيش من الكامل لمكمّل حتّى تغيضني من الهامل لمقمّل"

"أكنّ لها مشاعر الضغينة"

"دعنا منها، ما رأيكَ بالرئيس الجديد؟"

"إنّه خائف من الجميع"

"تنبّهتُ إلى ذلك"

---

(1) مثل شعبي تونسي

(2) مثل شعبي تونسي

"لا أعرفُ ما به"

"أتمنّى ألّا يتبنّى سياسة الإذلال لفرض سلطته، هو الآخر"

"للبشر وجوه مُتعدّدة"

"ذلك الّذي تُسمّيه بالبارون ينفرد بالرئيس دائما"

"أ حقًّا؟"

"أحسبُ أنّه يدسُّ برأسه أشياءً سيّئة عنّا"

"أ تعتقدين؟"

"إيماني راسخ فيما أحدسُ"

"الحياة هكذا، تدور حول الظلم، لا غير ذلك لمواجهتها"

"عش حياتكَ مُتمتّعًا حتّى نهايتها"

"دوري ككاتب يمنعني"

"دعكَ من هذه القصّة، قصّة الكاتب. كن على دراية بنفسك وعش شبابك دون تسميات، لا تفرض على نفسكَ أوزانًا لا تستطيع تحمّلها"

"أشكركِ لتذكيري. هو هذا دور الكاتب، ضائع ويُوجّه النّاس"

"لكمّ تُعجبني متى تقرأ ما بين السطور"

"تعود هذه الميزة إلى قراءاتي الكثيرة، إنّي أحدس وأحسّ بكلّ شيء"

"الكميّات لا تهمّ، الجودة تجيئ أوّلاً، توقّف عن تقييم نفسك، أؤكّد لكَ أنّ لديكَ بالفعل قيمة كبيرة ولكنّك مُطوّر خصيصًا"

"أحيانًا لكمّ يحتاج أحدنا إلى شخص ما ليُذكّره بأشياء لم يرها في شخصه"

"دعْ أفكاركَ تتدفّق لتسحب منكَ القُيود التعليميّة والأبوية والبطريرك، اسمح لنفسكَ أن تكون أنتَ، أقصدُ أنتَ بكلّكَ عاري أمام صورتكَ دون الحاجة إلى انعكاس المرآة التّي تُرسل لكَ صُورة ليست لك"

في ذلك الصّباح الدبق الحزين وصلتُ إلى البنك باكرًا وملسوعًا. الثابت أنّي لم أتنبّه إلى كمّ السّاعة، فلم أغلق عينيّ إلّا ساعة واحدة وعند طُلوع الفجر الأَجّاج. أشعرُ بالتّعب ولؤمه الساغِب يمتدّ إلى أعصابي وسُؤمها. تعب رفيع يجعلني أنام بقرف الرطوبة في أي مكان أجلسُ فيه. تعب يفور إلى المدينة ويُغرقها في الضباب وشتاتها. اضطررتُ إلى تناول الفيتامينات. صار قلبي يألف التّعب. كُنتُ بحاجة لأنْ أخذ إجازة لكنّهم كانوا سيُجيبوني بالرفض وصواعقه. كنتُ لا أُطلق يدي إلّا وأُخطأ كبس زرّ الجرس.

وفي ذروة الإنشداه شرّع البارون لي باب البنك وكانت على وجهه الثخين الحقير دهاليز الضيق. كان يصدُّ ولوجي إلى البنك، حسبتُ أنّه سيُقدّم لي إتَاوَةً ويصرفني، وعندما نظرتُ إليه مُطوّلًا تنحّى جانبًا. لو كان في مُستطاعه لكمي لفعل. ودخلتُ لاعنًا أنقم على نفسي. نتانة القرف تعبق من البنك وحتّى من البارفان خاصّته. وجدتُ عميلاً في مكتبه بضوء

هزيل كشـف نصـف وجهه. عرفت ما كان هذا البـارون يفعله فتجاهلته تجاهلًا كاملًا. أزحف إلى الجناح المصرفيّ وغرقتُ مُختنقًا في المقعد الخلفي. كان يُداخلني يقين أنّني سـأنام دون مُقاومة. إنّني في ظل التيّار كما لم أكن من قبل. باستسلامي وهلعي وموتي أنقاد للنوم وخمره ودغدغته.

كُنتُ على أرضيّة البُورصة المُوحشـة مُنغرسًـا إلى مُستوى عُنقي، وبلا روح، وعـلى ما سـمعت كان أصحاب المصلحة يتحدّثـون عن مُقايضتي بحـرص متعنّـت إلى المسـتثمرين: "هـذا موظّـف لقطـة، مـن يشـتري؟ موظّف الموسـم وبارون الغد" وكل ما حولي عـواء الذئاب يُوقِدُ تَبَرُّمي، ثمّ اشـمئزازي. وكانت أسـهمي ترتفع ملهوفة مثل سفينة فضاء تطفو في الهـواء. مفرقعـات نارية تصبّ الأوراق النّقديّة مـن فوقي. "هذا موظّف لقطـة، من يزيد؟" ويغلفني الصَّقيع المُؤذي فتُبنى جُدراني. يرتخي ضباب الصّقيـع في أعماقي، وأصرخ ليكفّ الطغيان عن العُبوديّة، ويُحجم الكون عـن جُنونه وفوضاه. إنّي لسـتُ شـيئًا يُمكـن شراؤه أو بيعه. أنا إنسـان. ويتعالى النُباح المحموم لواحد من أصحاب المصلحة "هذا موظّف لقطة، من يزيد؟" عشرات المستثمرين يهتفون بحناجرهم المحرورة ولكلّ منهم سـعر مرتفع يزيـد بمزايدة خصمه. انطلـق الزّعيق من نفـسي مفاده أنّني لستُ شـيئًا ليُباع ويُشترى. أصواتهم تدوي مسـعورة شرّيرة مثل انفجار الألغام "لكلّ شيء سعر، حتّى الموظّف اللقطة"

تيقّظت على الصّوت القاصف للرئيس:

يعصفُ مُهتاجًا." أجئتَ لتنام لديّ؟"

انتفضت كالذبيح في مكاني وكان الموظّفون يُشاهدون مشهد الإذلال هذا.

للرئيس عينان تتّسعان ينبثق منهما السيادة والإذلال." البنك ليس مكانًا لتنام فيه"

وقعت عينيّ على البارون الأكبر وكان يُطلق ابتسامة ملؤها الشماتة. كان خلف هذا التحريض والمعمعة الّتي حدثت. وتنغرس نظاراته في صدري مثل قدري المَمْسُوس. قام بها هو أمكر ما في الوجود.

اِنْقَاصَ عليّ الرئيس بغُلو زعيقه أبدًا لم أخبَرَ تواصله. ما كنتُ لأعرف ما يتوجّب عليّ فعله ساعتها. لم يكن له من غرض باستثناء أن يزيد من إذلّي. جعلني أتقزّم حتّى يفرض هيمنته على المُوظّفين. لم أكن نائمًا بقدر ما كنتُ سقيمًا وبلا حياة. أفضيت له بما أشعر به، أنّني فاقدٌ للحيويّة. لم يأبه لكلامي. لم أجد من الوقت ما يكفي لأختفي على مرأى من المهانة. عجزت أيّ موقف أتّخذ.

مُخلّفًا فرقعة الآواني الفارغة." لا أُريد رُؤيتكَ أمامي بعد الآن"

كان كل ما في البنك من أوراق وملفّات وكراسي وطراطير يعرق يرتعد. إنّي اليوم، كما كلّ يوم، أرهن حياتي ثمنًا لحيازة السلطة. أعتقد أنّه إذا تُرِكنا لوحدنا لنسبني إلى أسوأ سمات الخنزير والوحش، ولسوف يُطلق عليّ أكثر حيواناته الداخليّة بشاعة.

وصرفنـي إلى المكتب الخلفي أيـن توجد "ميرا" الّتـي كانت مُضرّجة بالعتمة. بدأتُ أحلم بمدينة أفلاطون الفاضلة. وكل ما حولي ينضح دمًا أسودًا. جاءت "مرام" السّوداء مشحونة بالشرّ. نظراتها المعقوفة والمُهتاجة كأنياب بنت آوى ذلك أنّ الرئيس أهانني أمامهم ودلّك بكرامتي الأرض. أي نُفوس شيطانيّة شرّيرة تستولي عليها؟ شعرتُ بدهشة الموت ثانية على مـا حـدث لي كحفّارة تُنقّب بـرأسي. موت مُتمهّـل لا يُضارعه أي موت آخر. موت في تماثله بفقدان المُحتضر أنفاسه فلا يموت. الحقد المُسلّط من عينيها يُطلق رصاصات الموت. تغرس الدبابيس في عقلي. العُويل والهلع اللئيـم. الهسـتيريا تقرع أذنيّ. القهقهات المسـمومة الّتي تنفجر من حلقها تتبدّل إلى ما يُماثل السـطو، إلى ما يُماثل القتل والذبح. في البنك يسـتحيل العـالم إلى غابة يُعشّـش فيها وحوش مُفترسـة في بذلات فاخـرة. وتنزلقُ شرسـة من مجـال بصري الضبابي كأبخـرة دُخّانيّة مُؤذية. لـو لا التُراب في حُنجرتي لانفجرت.

يغمـرني الضبـاب بمقته ولسـعه وبالتّالي يُفتّتني. يُحاول لأنْ يُسـقطني عـلى الأرض الكئيـب. ما الّـذي يمنعني من الانفجـار في وجه كلّ واحد منهـم بـأي ثمن وبوحشـيّة؟ لُمـبَرِّر أو لآخر؟ توافه كحُصـولي على درجة الماجستير، كانتظار شيء لا أعرف مأتاه، كعدم استكمال منجزات محتضرة لن تعني شـيئًا بعد خُروجي من العالم المُجهض. ناهيك عن الأشـياء الّتي

تُثير أعصابي، وُتسيلُ بواعثي، وثـمّ تعطّلُ مُحرّكاتي. افترضتُ من جملة ما افترضـت، أنّ حالتي الحاليّة مـا هي إلاّ نتاج صمتي وتصدّع كرامة البنك الحزيـن الّـذي أتربّص فيه. أنا لم أكنُ أسـعى لأكـون بينهم مُطلقـاً. تربو كآبتـي. تنفّسـتُ بعُمق وكل الّـذي كنتُ أصبو إليه بـرقَ بذهني. أجدني اليـوم مُجـرّدًا منطقيًّا مـن كلّ شيء. غمغمت في سرّي أنّـى أنّي كُنتُ مُمتلئًا بكلّ شيء والآن مُجوّف حدّ السآمة والألم.

كانـت "ميرا" على وشـك أن تسـترطَ أقـراص لتخفيـف الألم، لكنّها توقّفـت، اِسْـتَذْكَرَت أنّنا في شـهر رمضـان، تلك الأقراص هـي ردّ فعلي عـلى التوبيخ، والقمع، والألم، ولعلّه، الانتحار بنفسـه. وهـا أنذا مُتعب، مُضطـرب، مُرتعـش، أُديـم النّظـر إلى الأوراق والملفّـات بنظـرة غريبـة وغامضـة، نظـرة مُتأتّية من مـرض عضّال لا يُمكن علاجـه أبدًا. يحدوني شـعور بأنّني في أتمّ هزيمتي واستسلامي. ما زلت لا أعرف كيف اخترق نظام البنك دوافعي بسـهم أسود مسموم، وكيف قادتني نفسي بأن يعبث أربابـه بنفـسي العليلـة، لا أعـرف متى وكيـف أخذت كل هذه الأشـياء المظلمـة الرهيبـة بجرعات. لا زلت لا أعلم كيـف ظللت على قيد الأمل ولم تجُهـز عليّ هذه الأنظمة الرأسـمالية. لقـد راودتني خاطرة قتل نفسي في البنك، في الماضي، لم يتكلّل انتحاري بالنّجاح، فمن الثّابت لشخص مثلي، ليـس له أن يُفكر في الحياة، بل في الموت، وهـذا الموت يُلاحقني في المنزل،

وعلى الطرقات، وفي مقاعد الدراسة، وأخيراً في البنك، ويظلّ يُلاحقني.
الّذين من جيلي ومن همّ أكبر منّي سنًّا لم ينووا قتل أنفسهم بالرّغبة نفسها
الّتي أصبحت مُتجذّرة في ذهني بعد دخولي إلى البنك. في حين كان
زُملائي في الفصل يعدّون خلطة لبناء مُستقبلهم، كنت أعدّ خلطة غير
مُؤلمة لقتل نفسي. فيما مضى، كان لي، صديقة انتحاريّة مُتهوّرة، كانت كلّ
ما يُصادفها حجرًا في طريق السّير إلى خُططها، تتّهم والديها بجِنايَة أنّهما
لم يأخذا بمشورتها متى أنجباها، ووُلدت ظلمًا وضيمًا، ولم يُحسنا تنشئتها،
على الإطلاق، وتتهدّدهم، بارتكاب جريمة قتل، من خلال، شُرب حبّة
"دوليبران". ذهب في ظنّي اعتقادًا، أنّي أصبحت مثلها، لم أملك شيكات
البعث، أنا الآخر، وإنّما في حوزتي كمبيالة المُغادرة، مُغادرة البيت، مُغادرة
الكليّة، مُغادرة البنك ومُغادرة الحياة بأكملها. المُغادرة مُكلّفة، باهظة
الأثمان، ما هو خطئي في أنّني لا أتوافق مع الأنظمة الرأسماليّة؟ والآن
يمتلئ حوض الاستحمام بالماء الدافئ وتتمدّد "ميرا" فيه ثمّ تُلقي نظرة
إلى مكتبها وزنزانتها ودوافعها للقيام بذلك، ولا تجد فرحة تنفرد بها.
الرأسماليّة المستغلّة اجتثّت منها السعادة. أمسكت بالأقلام بدلاً من شفرة
الحلاقة وقطعت معصميها. ذهب في ظنّها أنّها ستقطع الرسغ على مهل،
شيئًا فشيئًا. خلت أنّه لن يكون هُنالك عجلة لفعلها. ولكن عَلامَ يجب
أن تكون في عجلة من أمرها ساعة موتها؟ مضت سنوات العمل عجولة

في وقـتٍ كئيب. كان هذا دافعًا لئلّا تمـوت دُفعة واحدة. أم يجب، وبدون تفكير، أن تعدّ نيسـكافيه، ضاربة صيامها عرض الحائط، وتشربه قبل أن تمضي إلى الموت؟ ويكون مشـهد موتها دمويًّا نصب أنظار معالي الرئيس. كـمّ تضرّعـت، إلى نقطة التخـلّي، لَئِلاَّ تحيـا وفقًا لوقائع الأنظمـة الغالبة، ولكنّها فُوجئت، بأنّها كانت تخطو، على خُطوط حقائقهم، فصار لها نظرة عمياء لمُسـتقبلها، ونظرة ثاقبة لماضيها، ونظرة شحيحة لحاضرها. ولم تعد تتوقّع شـيئًا من أرباب البنـك الّذين اسـتعبدوها وحلبوها. وحدّقت إلى أرشـيفات حياتها المهنيّة الضّائعة، لم تجد شـيئًا سوى سجل فشل، مُروّع، مُظلم، وقاسٍ. لم تجد أكثر من ذلك بكثير. وبرغم من مقتلها، فإنّ الرئيس سيحلّ محلها غُداة غد، وهو غافل عن جنازتها، بموظّف آخر.

وفيما كُنتُ أهذي أخذني "إدريس" ونَصَّبَني على مكتبه لأشتغل مكانه كشـكل مـن أشـكال التخفيف عمّا حـدثَ لي. أنكبّ على العمـل المُفجع جافًّـا كما لم يفعل أي موظف مُحنّط آخر. أُلاصـقُ الكمبيوتر. أحسُّ بأنّني أنتمـي لعوالم الآلة والرقّ. أحسّ بأنّني طرف فاعل بهذه المهزلة المحتدمة. ممثّل رومانتيكي يبعث على الصّمت الحزين. إنسان بلا دمّ. يأكله الجُلوس والوقـت. مترنّح الأفكار. لا يتأفّـف، لا يتذمّر، ولا يحتّج. ممحوّ المُقاومة. مشـلول الإرادة. حجـريّ الهمّة. حاله لا يتبدّل. لا أعـرف كمّ من الزمن انقـضى. هُنالك شيء مـن الأزيز الرتيب يقـرع أذني برعونة، هُنالك شيء

خشين يُزعجني ويُثير القرف بشراهة من الدّاخل، هُنالك شيء مُرّ يجعلني أقـع في أحضان البلادة والكسـل المظلم. لا طاقة لي عـلى المُبادرة أو التّفوه ببنـت كلمة. هُنالـك شيء يُفقدني مكنتي على التحليـل والتّفكير المُنتظم، هُنالك شيء بدّد معرفتي ونفى عقلي وسـاد السّـواد عـلى البياض. ما عاد بإمـكاني العمـل. ينصهر الألم بعقلي نصـلًا حادًّا أبدًا. أجهـل ماذا كان فيّ يرجّنـي، يخزّني، يدفعني. مـا أفقر المصير في نُصرته للنُبـلاء. أليس المَصِير الأناني أن ينصُر في الأخير الخير على الشرّ؟

وانفجرت أقدامـي مُرتجفة، أبرقتُ إلى مكتب "ميرا" المُنتحرة، رعدة مُكهربة:

"أُريد أن أرحل"

"إلى أين؟"

"إلى أي مكان آخر"

"لا مكان في الدنيا يستقبلنا"

"إنّنا أيتام القهر"

"ناس بكري قالوا كسرة وماء والرّاس في السّماء"

"وقالوا طول البال يهدّ الجبال"

"ليس لي أحد"

"ولا أنا"

"ألا تـرى أنّ الحياة قد تقذّرت والنّاس مسرحيًا تبيع نفسـها وبعضها في أوّل ركح"

"ما عدتُ أدرك شيء"

"ألا تـرى أنّ اللوائح قد عتِهت بما فيه الكفاية والنّاس أخلاقها حليقة تمامًا، لا عزّة لهم ولا ثقافة، والأحمق بالتملّق والتزوير يصير وزيرًا"

"مـن أجل سـلامي أصبحتُ أقلّ رؤية وقد انتهـى. كلّنا نعرف كيف تسير الأمور هنا"

"لقد حاربوكَ كثيرًا مخافة منك، بأوسـخ الوسائل المستحيلة، كبالوعة سوداء حاقدة سرقوا منكَ الأضواء، إلى أن فقدتَ كل إحساس بنفسك"

"مـا عـاد يهمّنـي أي قـادم، ولا شـأني يخصّنـي، ومتى أُفكّـر في نفسي ومستقبلي يأكلني الإهمال"

"أستقف مكتوف الأيدي؟ استيقظ من حقل اللامبالاة أو فليخرجك منـه أحدهـم!! اسـتفرغ كلّ شرّ قُـدّم لـكَ على أطبـاق المحبّـة والصداقة والقرابة"

"سـأقف حيـث الصمـت والبُعـاد والفنّ وحـبّ الآخر، لعـلّي أنجو بإنسـانيّتي. بنقمـة القـدر وعواصفـه، ذلـك الشّرّ الّـذي جعلـوني ابتلعه واستنشـقه أنا وغيري لا أهتمّ بالتخلّص منه، بل سـيبتلعون ويستنشقون وذويّهـم ضعفه. الواقع أنّ كلّ ما سرقوه مـن أضواء ما عاد يعنيني، ذلك

أنّهـم بلا أضواء من الأسـاس وكلّ تلـك البهرجة حولهم اكتسـبوها من السّـلب والتملّـق والغشّ والـشّرّ، وعدم مغفـرتي أنا وغـيري يعني عدم سلامهم الأبدي، وهذا كلّ ما ظلّ يعنينا"

"عيناك، تحوّل لونهما، كأنّهما بئرا من ظلام"

صـارت تُحدّثنـي عـن كلّ مـا يحصـل في الكواليـس المظلمـة. وكنتُ أسـتمع إلى تلاوتهـا. أُلغيـت العبوديّـة كجريمـة شـكلًا لكنّهـا حـاضرة مضمونـًا. المُوظّـف لا يـمارس الحُريّة، بـل الخُضـوع والطّاعـة. ممّا يعني إِسْـتِحْواذ شـخص على آخر. الإنسـان الّذي يجلس في قمّة هرم السـلطة يحـرم أولئك الّذين يجلسـون أدناه لرفع من مردوديّة البنك. على حِسـاب انسـانيّتهم. يُجرّد المسـؤول العامل مـن صفاته ليتّخذ سِـمة الرقيق. يُقنعه أنّـه لا شيء. أمّـا إذا حدث وقال "أنا إنسـان" فإنّهـم يتهدّدونه في الغُرف المظلمـة بالبطالة والخصاصة والمرض إلى أن يعزف عن ثورته وينسـى أنه خُلق كإنسان ويرجع إلى صفة لا شيئا. فرّقوهم إلى نصفين. نصف مالك للنّصف الآخر. شـخص يستعمل شـخص آخر. يأتي الاستعمال للأشياء ونحن لا نصل إلى ميزة الأشـياء حتّى. نسـتقطعُ عشر سـاعات من يومنا لنتزيّـن في زيّ الرقيـق لِقاء سـتّمائة دينـار. لا بُدّ أن تظـلّ القوانين على ما كانـت. أُلغيـت العبوديّة لكنّها أخـذت مُتَعَرِّجات أخـرى أرقّ وأنظف. في غابـر الزمن كان يُعرف العبد بشـكله أمّا بعد الثـورة الصناعية فيُعرف

بمضمونـه. رقيق الأمس يُباع بشـكلٍ دائم أمّا رقيـق اليوم فيُكترى لعشر سـاعات. كان هُنالـك سـوق للعبيد، اليـوم يُوجد بنـك للعبيد. صارت تُراودهـا أفكار مُخيفة كأن تضع حدًّا لحياتها. إنّها ضحيّة هذا الجو العدائي للبنك. أُصيبت بلوثة مُعيّنة أحدثت فيها تبدّلات بالمخّ. "أنا لستُ ماكينة لأعمل لمدّة عشر سـاعات وأكون مُستهدفة لكمّ من المُضايفات والهرسلة والاسـتنزافات، ولا أشـعر" تقلّص نظام تفكيرها الطّبيعـي. إنّها تُريد أن تقتل نفسـها. إذا طلبت إجازة يقولون لها أنّه ما من خطب بها والتّعب ما هـو إلّا غُنَاج. يتلاعبـون بهم من خلال الخوف، فمـن منهم لم يفهم ذلك بعد؟ إلّا الحمقَى ومن يتبّعون وصايا النّظام. يُشـغّل البنك 700 مُوظّف شـاب من أصل 1800 طاقة عاملة من خلال المناولة. إنّها جريمة. تُوجّه الشركة المُنتدبة رسـائل هاتفيّة إليهم تُنبّـه الموظّفين المُتعاقدين من التورّط في الاضرابـات إلا برضى المُشـغّل. والغد في ما يعنيهـم؟ لا ينبغي التفكير فيـه. لديهم يوم وحيـد ليُكرّرونه إلى أن يجيء يوم التقاعد عقبى سـنواتٍ من الظلمات.

شُـعور غريب لم أسـتطع أن أذرف الدمع. لم يشـفع لي القهر حتّى من إلقاء دمعة يتيمة. نشـاف القرنيّة لا يعرف الشفقة. في الأغلبيّة هلاكي. ما وجدتُ نفسي قُرب الأغلبيّة وإلّا قد كان هلاكي وشيكًا.

كانـت السّـاعات تتسـابق مثـل أعمـدة الأضـواء إلى أن جـاء غاوي

التسلّط وطوّح بي خارج البنك نهائيًّا وبلباقة دون تقديم شُروحات. بخُشُونَة من أَدْمَنَ على إِخْناع عجينة ليّنة ورفسها. وبصلابة من وَالَى على ليّ الجرسونات وقهرهم. يُفرغ كلّ ذلّ حدث وأن لقيه من طُغاة سابقين. لولا شبح الفُصام وخُيوطه الّتي تُحرّكني، لكنتُ رميتُ بنفسي عليه، يا قاتل يا مقتول.

وندّت عن حُنجرته فرقعة فيها تلذّذ." نمّ في بيتكَ، ولا كلمة"

فرقعات طائشة، وبقرف من يُريد أن تنفلق الأرض وتسحبه خرجتُ أجوب طُرقات المدينة. يداي مستدلتان. أفقد قداسة لمعان حذائي. ألحان إيغور سترافينسكي تعزف في مسامعي وشيء ما يرفسني. وفي رأسي حريق مسعور يُمزّق أعصابي. اليوم أكثر من أيّ يوم آخر أمقتُ مرضي النّفسيّ. الّذي يتمثّل، في مُقاومة، شبح الفُصام. لكنّني توقّفتُ، فجأة، عن التفكير، وصرختُ بأعلى صوتي، آهٍ، ما أعظم حياة الحُريّة. لم يكن السّبب في أنّني نمت، وإنّما في كوني عرفتُ أكثر ممّا ينبغي معرفته وأنّني منشأ تهديد لهم.

كان موج الأنضمة الشمولیّة للمليشيّات يجرفني معه، في مكان ما، بين هذا وذاك إلى أن تاه منّي الوقت ونقضت عهد التصدّي له وتجرّدت ممّا كنت أؤمل كما في الأحلام. فانزلقت في انعكاس الصورة اللحظيّة والدّائمة. لازلت أبحث عن جسر عُبور الجانب الآمن وانقطاع الآلام

الإنسـانيّة. ولن أتلمّس مُسْـتَطاعٌ توثيق معجزة السّـلام. فما من خيط إلى المأمول. نزاع الابتلاع في وحل القبيلة مُتيسرًا بسُهولة. ما الذي أنتظره من رحلـة كابوس الغـد؟ اليوم، لا مناص لي من ترقّـب اِلتباس المنجى. كان الطريق من ظلام ما مكّنني من صدارة الترسّب والركود في تزاحم تيّارات أتـون الغضب. يتملّكني اعتقـاد عدم جدوى منزلة البقـاء. كانوا يودّون خرابي بأيّ شـكلٍ من الأشـكال. أكثر من أي شيء آخر أرادوه. رُغم أنّي لم أكـن أعنـي شيء في حياتهم. وفي السـكون المشـتعل والضجيج المنطفئ قد اسـتمرّيت كشجرة مُنقبضة تسجنها جذور من الانتماء حيث لا أكون وحيث لا تحدث الأشياء كما يحلو. كراهيّة مُطلقة ومُتصبّبة كانت في غوثي المُتصل. وفي عيني حقد مُنتحر يُدين البقاء ويزدرد المغفرة. وفي عيني ديْن لا يسـدده أهـل أرض. أرنـو إلى أن أكون منزلق، سـهل التملص، عديم المبـالاة، قليل الماضي، كثيف الحاضر، وشـديد المُسـتقبل. أريد أن أخرج نزعتي المقموعة. أشـعر بتعب الانسـلاخ، بتعب البـدء من جديد، بتعب التأقلـم. ومن فوهـة النّار يتصاعد رماد الأوهـام. وحصيلة التعب يكون الهباب. فينتفخ ورم التنازل في عوالم مُشوّهة يحبو فيه الطفل في متاهات ما ينتظره بغير انتظام ويتّحد بظلال الخراب من دون مداخل ومخارج مُحدّدة. ومـن خـلال هذا العمر المتهـدم يموت الطفل شرّ ميتة بأسـفه الثابت وفي مسـافة الحياة كمّ يموت كثيرًا إلى أن يندفع بداخله شره موت الحقّ وهذا

أشبه بجوع الحب المتعذر في قوقعة كره يغزوها شيطنة البشريّة. فيشك في الحب ويشـك في وجوده. لن يصـل إلى مواضع نيّرة ما لم يُجهض من كون السراب ومن الانمحاق الأزلي ومن عدمية الضباب. وجريًا نحو السكينة يختنق في عزلة سرمدية خبرها من سـبقوه. في قيـد التجريد يُرتّق وجوديّة مُمزّقـة. وهذا لن يكـون تخبّطًا وإنّـما أيّامًا بأرباع الأشـياء بأرباع التلاشي. تفتقر إلى الإمكانية وتفيض بالتكلّس.

أسْتَنْظِرُ "هالة" كل ليلة، وكل ليلة نلتقي تحت عمود الإنارة.

فاتني مناقشـة رسـالة الماجسـتير في دورتهـا الأولى ذلـك أنّ البنك قد إِعْتَرَضَ على تزويد الوسـيط الذي أرسـلته بالأوراق اللازمة، على الرغم من أنّني قد أتممتُ فترة تربّصي.

استنجدت بـ"هالة" وكان طلبي مُجاب:

"ضعِ ختم البنك على هاته الأوراق"

خلال يومين اتّصلتُ بها ولم تردّ. وآملي من ذلك واهن.

اتّصلت بي منذ ما يزيد عن يومين.

"لقد اتّصلتُ بكَ ذلك أنّني وجدتُ مُكالمة منكَ"

نظرت في انذهال." لم أفهم"

"أخبرتُ الجميع بما طلبته منّي"

"ظننتُ أنّنا أصدقاء"

"صديق العمل عدو خفيّ"

"لكنّني حسبتكِ منّي"
"أتمنّى لكَ النّجاح لكنّني لن أُساعدك"
"ولكنّني حسبتكِ منّي؟"
"إنّي أعبدُ المال فحسب"
"ومودّتي؟"
"أُغدقها على أُخرى"
"ما مآل حُبّي؟"
"الفراق"
"إن فارقتني ستندمين"
"لا أُريدُ منك شيئًا بعد اليوم، راتبي أهمّ من ترّهات الحُبّ"
"رُبّما لم يكن شيئًا مهمًّا بالنسبة لكِ، لكنّهُ كان قلبي[1]"

أغلقت الهاتف بوجهي. مازجني الحُزن. ما كرهتُ في دُنياي شيئًا بقدر الخذلان وما يخلّفه من ظلمات للنّفس. يجتاحني كبرياء لأنْ أنهي وجوده، يعتريني ميْل لأنْ أنفجر نصب غروره. وأنا لابدّ لي من كسر ساتِر الخذلان. إنّي في لازمة لزوال لزومه. وأنا أكره سواده ودرجاته. ينفجر لسعه الملتاع في نفسي. يحفر شيئًا يقبض بأوتاري، يُدخّرُ شيئًا لا يقلّ قسوة عن الموت، يُخلّف شيئًا يُعزّز دفقات الصمت، يُفارقُ شيئًا أكثر حرقة من السّحق.

(1) محمود درويش

أتسـاءل عـمّا إذا كُنـتِ قد أحببتني بحق، أنـا عن نفسي قـد أحببتكِ بصـدق. يـتردّد إلى ذهنـي عـمّا إذا كُنتُ قد عنيتُ لكِ شـيئًا؟ أحسـبُ أنّ الأفعال تُخبرنا بما يشعر به الشخص. أتساءل عمّا إذا كُنتِ سعيدة بهدمي؟ يبـدو لي أنّنا قـد خرجنا الليلة إلى مـكانٍ ما وأجبتني بخيبـة أمل ورفض. كان الرفـض من عادتي، أن أرفض الخُـروج، أن أتجنّب مُلاقاة البشر بقدر مـا أمكننـي. الوحيد الّـذي كُنتُ على سـجيّتي معه كان أحـد الأصدقاء القُدامـى، كُرهنا للنّاس جمعنا. كُنتُ أشـعر أنّه ليس حقيقيًا وسـيُفاجئني بالحقيقة هو الآخر، لذلك فاجأني بها. أتسـاءل ما إذا كُنتِ ستذكرينني في قادم الأيّام؟ أم أنّ الحياة ستأخذني بين أمواجها وأنا لن يذكر شيئ. أحيانًا لا شيء يستقرّ في رأسي. كل شيئ يتبخّر، تماما كما أرتاب بوجودي.

لم أتردّد لحظة في تحويل وجهي إلى الظلام ثانية. يُداخلني إحسـاس أنّ الظّلام هو الشيء الوحيد الّذي ليس من الجائز أن يخذلني. الظلام صديق أخلص لي. حبيب وفي. تلقّفني متى هويتُ في القاع السـحيق. جعلني لا أُدرك سـطح القـاع. الظلام لا يتجاهلني رغم أنّنـي أتجاهله كلّما أبصرتُ نُور العـالم الخارجيّ. رأيتُ من الظلام الإخـلاص والصدق والوفاء. أمّا الحب فلم أرَ منه إلّا عكس ما كُنتُ أنتظره. ليتني أُسافر من فوري. أُفارق كلّ شيء وأتّبع خُطوط مصالحي. أتّبعُ خُطوات مصالحي بشـكلٍ أنسـب ممّـا أن أتلمّس طريقًا مُشـوّهًا نحو شـخص كلّما بادرتـه خُطوات خذلني

ألـف خطوة. لو عَلِمَت بما أكنّه لها من صدق لما اسـتهانت بخردل حُزن، لما اختصرت مشـقّة الطّريق عنّي وناصرتني، لما كُنتُ قد تورّطتُ بها بهذا المقـدار مـن الصدق الّـذي وصل إلى حُبّ، لمـا تركتني أتعلّـق بها إلى هذا الحدّ. الليلة خيبة أملي شديدة وقلبي يسحقني. أنا كشخص لستُ كسائر الأشخاص. وللماضي الأليم وما حدث لي فيه-من إنهيار صحّتي النّفسيّة والجسديّة وتهالك مُستقبلي ورحلة استرداد توازني النّفسي وخُروجي من الأوجاع النّفسيّة ومشوار استرداد بعضًا من قواي الجسديّة-ذريعة لقُبولي بالنّـاس بالكاد مُجـدّدًا. أذكر مرّة أنّ الطّبيب المُعالج أخبرني أنّني سـأتعافى حينما أجد الحُب المُناسـب، الّذي سـيقبلني مُنطفئًا ويـد بيد يُمكنني رُؤية الضّـوء مـن خلال عينيـه. اليوم يُمكننـي أن أكون على يقين مـن أنّني لن أشعر بالشفاء. ولارغبة لي بالحياة الرثّة الّتي يحياها معظم النّاس.

لم أرها بعد ذلك مُطلقًا.

إنّي اليـوم كـما الأمس أتعـرّى من الحُب. لعـلّي سـأُحوّل حُبّي للقطط ودعـم جمعيّاتهم، فحُبّـي للبشر لا يُطلق إلّا ويُسـتنزف. لازلتُ أحسّ أنّ أدنى إهتمام يُقدّم لي يتحوّل فجأة إلى حُبّ حتّى وإن كان من قرد.

بعد شـهرين من المُحاولة، تلك الأوراق نلتها من خلال وسـيط أكبر (كان أخـي) جلبهـا لي بمُعاضـدة البـارون الأكبر الّذي حسـبتُ أنّه كان قد شَـعُرَ بشيء من التَبْكيت. لكنّني كنتُ مُخطئًا. سـيرفس لقاء سيرفس. بزنس از بزنس. عندك فرنك تسوى فرنك. تفرح بيّا نفرح بيك.

في التّاسع عشر تمّوز (يوليو)، المُوافق ليوم عرفة ناقشتُ مُفكّرة الماجستير بشكلٍ استثنائي وأَحْرَزتُ عدد خمسة عشر. كان أقلّ عدد وذلك يعود لمَغِيب الريبورتاج الّذي حرمني منه البنك. جُبِل الأكاديميون بالاعترافات الواردة في المُذكّرة.

غداة غد قضيتُ عيد الاضحى مُكتئبًا بالبيت.

مضيتُ للاحتفال بتخرّجي في إحدى ليالي أغسطس الحارّة فتهدّلت لثّتي وانتُزِعَت الطّبقة الثانية من مينا أسناني من أُوَار الجُبن اللاذع. لم أُحقّق نجاحًا مع عشرة أطبّاء أسنان. فارقني النّوم لشهرين. كنتُ أتحوّل كالمسعور من طبيب إلى طبيب وقصف الرعد في رأسي يلتهم ما تبقّى من همّتي. وإنّي لأعرف أنّه لا أحد جدير بأن يُساعدني. وكُلّي تهكّم في إطلاق النّار على نفسي حدّ الموت. وكُلّي تهكّم لأنْ أهزم شيئًا ما، وفي داخلي رعْدَة يهزّني تيّارها لأدمّر شيئًا ما، لعلّه غزو الرأسماليّة وفوضاها.

أَحْجَمتُ عن التداوي بعد أن أنفقتُ كل ما أملكه في طلب الشفاء وبقيتُ مُتألّمًا.

عاودتني فكرة أن أقتل نفسي مُجدّدًا. عَانَدتُ مخاوفي وأوجاعي النّفسيّة بالرجوع إلى الكتابة بدلاً من الركون إلى أركان الوحدة والظلام. عاودني التّعب المُزمن من زمن التّعب المُزمن. وأنا بلازمة لأنْ أطلب المساعدة من شخصٍ ما، أن أحتمي ممّا أجهله ولا أحتمله بشيء ما.

في تلك الصَّائفة لم أرَ البحر، إذا رأيته لبكيت.

في مـاي 2022 جاءتنـي سـانحة لنشر واحدة من رواياتي بفلسـطين، فاخترت رواية السّاعاتي.

جرش كاتب تونسي نشري من خلال سحب رواياتي الأربعة من دور النّشر العربيّة وبعثها إلى كتّاب تونس فكتبوا عنّي مقالات نقديّة شتموني فيها.

عـن طريق كاتب وأسـتاذ جامعي أرسـلت كاتبة تونسـية رواياتي إلى المعهـد أين تحصّلـت على الإجازة. أرسـل مدير المعهد روايـاتي إلى معهد ثانٍ، أين تحصّلت على شهادة الماجستير.

أزال إداري بالمعهد أنّني قد ناقشـتُ مذكّرة الماجسـتير وحظروني من تسجيل بالدكتوراه.

استعنت بكاتب سوري وقد كان طلبي مجاب. تقصّى عمّا شجرَ لي بين كتّـاب تونس، فاتّفقـوا كلّهـم على أن يخبروه أنّها ليسـت رواياتي فحظرني دونما أن يمدّ لي يد العون.

كانت شـهادة السـيّدة أحلام مسـتغانمي صارمة، وقـد قامت بالذود عنّي.

اتّصـل بعـض الكتّـاب العرب-على غرار السـيدة أحلام مسـتغانمي -بعائلتـي بنيّـة أن أنضـمّ إليهـم دون أن يكـون لي درايـة بذلـك، فماتنت عائلتي هذا القرار.

تصاعدت الحوادث الشجيّة وغمرتني حالة من الكآبة.

راسلني أستاذ جامعي بنيّة المرافدة فدفتر لي مكالمة وأرسلها إلى المعاهد.

ليلة 14 أغسطس، ازدردت 28 حبّة ستيلنوكس وظللت ثلاثة أيّام بقسم الإنعاش. كدت أن أفقد حياتي

بعد خروجي من المستشفى تعرّضت إلى التعنيف من أفراد عائلتي كي أنسى أمر الروايات.

ليلة 3 سبتمبر أخذتني عائلتي قسرًا من قارعة الطريق وحقنوني مرّتين بالمستشفى، علاوة على كتابة ورقتين عن كوني مختلّ المدارك العقليّة. بسبب الحقن المتزايد انطلقت منّي صرخات عالية وكدت أفقد صوابي.

كنتُ أتنقّل بين بيوت الأقارب وما من أحد قد قبل بي.

بسبب ما فعله كتّاب تونس، تحطّمت حياتي برمّتها.

كلّ ما أردته هو أن أنشر رواية واحدة وأن أصبح كاتبًا.

السّاعة: 16:57

كُتِبت الرواية في الفترة من 11/ 02/ 2022 إلى 20/ 02/ 2022

(عدد أيّام الكتابة: 8 أيّام)

(أخذتُ أيّامًا أُخرى للصياغة)

تحديث: يوم 4 مارس 2023



ياسين الغماري

زمن التعب المزمن

كان القمر الّذي يملأ السّماء يفرشُ أضواءه على الطّرقات. بدها النحيلة والشاحبة محشوّة في فُتحات معطفها، كالعادة. وكلّما ضبطتُ توقيتي أجدها بعالمي. بقامتها أمامي. مُنصهرة بفُراقي. ومُلتحمة بأبديّتي. كَثيرٌ بها أنا بِشارَة الزمن. فاجعيَ هذا الولَه الّذي أنا فيه. تعلّقتُ بها بكل ما تحمله الأرض من خيبات. من ذا الّذي قرع أجراس أرضي. خرَّ قلبي من قلبي. في دُنياها هوى. في الغرام مُتيّمٌ. دُنياي فيها هوَت. مُستوطنة الفؤاد. آمالي كُبرى. كعظيم تسرّبي إليها. يلتوي قلبي فأنتهي آنّي. سأحصد نفسي وأموتُ ولعًا فيها، وليشهد قلبي والعالم أنّها تستحقّ لُطف الكون برمّته، الحُب الّذي أوهمها ذوات المضحكات المُهترئة إيلائها إيّاه. يا أبديّتي المُتأوّهة لا تقولي للمقادير كلّا، قُولي: "آه، أقبلي لطيف العشق المُتأوّه" إنّ في ذوباني العذب بها تلقيحًا لبراءتي وولادة لقلبي وانعتاقًا لجسدي. الحُب صُدفة العشق فيتوه الحُب عن العشق. كانت صُدفتي الحُلوة. الغوص في الموت ليس كالغوص في الحُب. الأوّل وفاة والثاني خلود ما بعد وفاة. لا يستقرّ الكون بتقلّباته وتزعزعه إلّا بحضور الشّخص المنشود والمُراد المكوث وإيّاه رُغم أنف العالم. الحُبّ يُذكّرني بالأطفال، شفّاف ونقي. لهذا حُب العُقلاء لا يكتمل. يجبُ أن تُحب بقلب طفل وتحافظ على ذلك الحُب بعقل الكبار.





ISBN 978-3-98529-262-2



